نسخة أخرى

إيمان خليل

الجمعة الثانية عشرة ظهرا شاطئ الإسكندرية

كنت أداعب الرمال الدافئة بطرف قدمي، أنثرها بعيدا برفق محاولا صنع حفرة علي قياسها لدفنها في جوف الدفء،

حين ركض ابني نحوي وقفز بحركته المفرطة فأعاد الرمال إلى الحفرة من جديد.
-أبي أشتهي تناول ايس كريم.
همس لي مراد حتي لا تسمعه أمه لكن صوتها أخترق همسه ككوب زجاجي سقط فجأة قبل أن تصل يدي الي محفظة النقود علي الطاولة.
-لا، لقد حذرتك أكثر من مرة أن المثلجات تؤذيك.
ثم ثبتت عينيها نحوي كمصابيح إنذار قبل الانطلاق.

لا أبالغ إن قلت أني على علم بكل كلمة سينطق بها لسانها، كنت أحفظ شكواها عن ظهر قلب، فما كان عليّ سوى أن أومأ برأسي وأعتذر كي ينتهي ذلك الإعصار قبل أن يطيح بنا.

في الرابعة والنصف مساءا، بدء المشهد يتحول أمامي، تلك الأمواج التي أراقبها علي مدار الساعات الماضية في صمت قد بدأت في التباعد وقصرت قمتها كطفل صغير تهدهده للنوم لكنه يقاوم النعاس بما تبقي لديه من طاقة ضعيفة.

أصبح الأزرق هو اللون الوحيد الذي تراه عيني، زرقة السماء تذوب في قلب البحر. وقرص الشمس يبتعد ويختبئ

خلف سحابة صغيرة فشلت في إخفاؤه كله فتبقي جزء لا بأس منه ينثر أشعته الدافئة كأصابع ملوحة بالوداع.

سبحت في ذلك اللون الفيروزي حتى شعرت كأني جزء منه بعيدا عن الشاطئ ، لكن سعادتي بذلك الأنفصال لم تدم حين وقف أمام عيني بائع الفريسكا وظل يحدق فيّ وكأني وحدي في ذلك المكان.

صاح فجأة وهو مازال يحدق نحوي كمن يدقق النظر محاولا أن يتذكرني:
" الفريسكاااا ..جرب الطعم الجديد"
لم يتحرك لي ساكن وأنا أسمع صوته يتجسم وكأنه الصوت الوحيد حولي، ثم ابتسم إبتسامة كشفت عن أسنان صفراء مصبغة بالسجائر أثارت رعشة غامضة في جسدي كأني أشاهد مجنون يحاول قتلي.

هززت رأسي بالرفض في عنف وتمنيت أن يختفي فورا قبل أن الكمه في وجهه ، لكنه بقي قليلا ثابت بنفس الأبتسامة الصفراء كتمثال منسي ردمه التراب.

أقترب أكثر حتي كاد وجهه يلتصق بوجهي وقال بصوت خافض موجها كلامه إلي..أنا فقط!
-لقد خسرت الطعم الجديد!

و اختفي فجأة كما ظهر واختفى معه المشهد الفيروزي وتحولت اللوحة الزرقاء الي أخري أكثر عتمة كمن سكب عليها حبر أسود فاندثر لونها الأصلي تدريجيا.

عاد صوت مريم زوجتي من جديد وهي تصرخ في مراد كي يرتدي ملابسه لنرحل وسألت نفسي: أيعقل إن كانت تتحدث طوال ذلك الوقت ولم أسمعها، أم كانت تأخذ قسطا من الراحة بين آن وأخر؟

تحركت خلفهما علي الرغم من أني من يحمل مفاتيح السيارة وعليهم أنتظاري علي أي حال، لكني أعتدت ذلك، أعتدت البقاء في الخلف.

~~~~~~~~~~~~~~~~

مريم التي أعرفها!
~~~~~~~~~~~~~~~~

لا يوجد أبدا وصف واحد لشخص واحد حتي وإن كنت أنت الواصف نفسه، رؤيتك للشخص تختلف مع مرور الوقت ومع أي جزء فيك يصفه عقلك أم قلبك!

في بدايات العلاقات دوما ما نري الطرف الأخر ملاك بأجنحة، خاصة وإن كانت عواطفنا هي الحاكم الأعظم ثم تبدأ عقولنا تلتقط بعض الصور فتتحول الأجنحة من الأبيض الي الأسود والحقيقة إن كل من الصورتين ليس حقيقي.

إن حاولت أن أكون محايدا ووضعت مشاعري وأفكاري بعيدا وهذا أمر سهل لأن كلاهما لم يكن الحكم الغالب في يوم ونظرت إلي مريم الأن نظرة طويلة لوصفها بكلمة واحدة فربما تكون: لا أعرفها!

إبنه عم ثم زوجة ثم أم لأبني الوحيد، ما يعني أن مريم كانت دوما في حياتي لكني أبدا لم أفقد ذلك الشعور في كل صباح حين أنظر لوجهها وأتراجع في اللحظة الأخيرة حتي لا أسألها: من أنتِ؟

تلك الغربة التي لم تنتهي أبدا رغم التصاق أجسادنا في سرير واحد ومشاركة كل صغيرة وكبيرة معا.

إن حاولت من جديد في وصفها كأمرأة فكلمة بسيطة قد تفي بالغرض الا وهي: عادية!

عادية الجمال، عادية الجسد ، عادية الفكر .
ليست سوي امرأة منها آلاف النسخ في كل مكان.

أشعر الآن بوخذ ضمير أن أصفها كذلك بعد كل هذا العمر ، فلنقل إذن إنها أم جيدة رغم مزاجيتها وزوجة تحترم واجبتها و...

لا أعرفها!

~~~~~~~~~~~~~~~~

الجمعة التاسعة والنصف مساءا ..

لم أكن في ذلك الوقت في أحدي المقاهي مع الأصدقاء مثل أي رجل شرقي قام بواجبه في الصباح وينتظر الليل حتي يتحرر ويمنح نفسه بعض الوقت بعيدا عن جدران المسؤوليات ، بل كنت رجل متقاعد تجاوز الأحلام، البسيط
~~~~~~~~~~~~~~~~

منها والمعقد. أرتدي بيجامة النوم وأمسك بكتاب لعلي أغفو عند أحدي السطور.

"أعنى أننى اكتشفت أننا نحن الذين نبالغ فى سرعتنا ونحن نركض خلف السعادة ، نكتشف أننا تجاوزناها أحيانا ، وخلفناها وراءنا ، دون أن ننتبه ، ولذا فإن مواصلة ركضنا هو فى الحقيقة شكل من أشكال العمى "*

دخلت مريم في هدوء وأغلقت الباب خلفها برفق، ثم تسللت الي السرير بجواري وسحبت الكتاب من يدي وهي تبتسم في براءة.

لم تتغير ملامحها مع مرور السنوات، مازال وجهها الصغير يحمل ملامح طفولية غريبة، أعين صغيرة سوداء وبشرة حنطية، أنف دقيق مسطح وشفاه رفيعة.

مالت برأسها علي صدري وهي تهمس لي؛
-لقد نام مراد.
ولم أكن أحتاج الي تلك الجملة لأفهم، فقد عشت ذلك المشهد كل جمعة علي مدار عشرة سنوات أي ما يعادل ربعمائة وثمانون مرة تقريبا.

رفعت رأسها وبدأت بتقبيلي في وجهي وكنت أكره القبلات، فالقبلة التي لا تشعل جسدك أشبه بماء مثلج يلقي عليه، لم أحب مريم يوما وقد عرفت ذلك من أول قبلة لنا. فالحب أنفاس وإن لم تعشق أنفاس الطرف الأخر فلن يصيبك الحب أبدا.

وربما قد لاحظت مريم ذلك فبدأت في مداعبتي بأيديها لإيقاظ ذلك الصغير النائم ولأن أجسادنا -لحسن الحظ-تستجيب ميكانيكيا فقد تحرر الطير ولم يخذلني تماما كما لم يخذلني في الربعمائة وثمانون مرة السابقة.

غفوت. ليس علي أحدي السطور كما تمنيت، لكني غفوت علي صدرها و في ذهني يتردد أخر ما قرأت؛

"إن مواصلة ركضنا هو فى الحقيقة شكل من أشكال العمى "

*إبراهيم نصرالله

~~~~~~~~~~~~~~~

ليس كل ماض يتحول الي ذكري!
~~~~~~~~~~~~~~~

علي عكس أغلب البشر حيث يمنحهم الشروق الأمل في يوم جديد وقد ينقبض البعض وقت غروب الشمس بحلول الليل، كان الشروق ومازال يبعث بداخلي شعور دفين بالحزن.

السابعة صباحا.. جسدي يرتجف تحت الغطاء، و سكين مغروس في حلقي يمزق أحبال صوتي حتي أني لم أتمكن من النداء علي أمي كي تغلق ذلك الستار حيث تحترق أجفاني بأشعة الشمس والتي مازالت في طور الشروق الدافئ .

شعرت بحركتها في الخارج كنت أعرف جيدا كل خطوة من خطواتها بمجرد انطلاق صوت المنبه الأشبه بصفارة حريق، بداية من الحمام إلي غرفة الجلوس حيث تشعل التلفاز ومنها الي المطبخ لأحضار الفطور.

بدأ يتصاعد صوت تلك الأغنية اليومية والتي كانت دوما أول صوت أسمعه بعد إنذار المنبه ويظل لحنها يتردد في رأسي طوال اليوم الدراسي كنحلة تدور حول أذني دون توقف؛
"عايزنها تبقي خضرا ،الأرض اللي فالصحرا"

لا أذكر إن كانت تلك الأغنية مقدمة لذلك البرنامج الصباحي " صباح الخير يا مصر" أم إنها كانت الفاصل الرئيسي، وعلي الرغم أني لم أشاهد ذلك البرنامج قط، لكن تلك الأغنية كانت جزء من روتين حياتي اليومي ولم أعترض يوما علي ذلك بالرغم من سخطي الدائم علي تلك النحلة لأني ببساطة لا أعرف إن كان لدي حق الأعتراض!

كنت أعلم أن بمجرد خروج ذلك الصوت من التلفار سيلحق به صوت أمي يناديني أنا وأختي.
-طارق، فاتن هيا أستعدوا يا أولاد.

لكني لم أتحرك، لم أقوي حتي علي رفع كفي حين حاولت، و بقي طنين النحلة يدور حول رأسي فوجدت نفسي جزء من تلك الصحراء، أتصبب عرقا بشمسها الحارقة وحلقي شديد الجفاف يشتهي قطرة ماء.

شعرت بيديها باردة تلمس جبيني المبتل وصدرها ملتصق بوجهي تصرخ بنداء جديد؛
-عيد! طارق حرارته مرتفعة للغاية لابد أن نأخذه الي المشفي فورا.

وكأنها تلك الخضرة التي يرددن أسمها كل صباح، كان كفها كاف ليطمئني أني مازلت حي.

جاء صوته صارما ساخرا من ندائها قريبا وكأنه من داخل رأسي ؛
-مشفي ! والله صرت أخشي أن تعودي لإرضاعه من جديد.

نهضت أمي كمحاربة وبقيت تناضل كثيرا من أجل سلامتي في جبهة لم تيأس يوما من تحريرها، لكن صوتها كان أشبه بصرير عصفور رغم قوته.

انتهت الحرب بوجودي في ذلك المقعد الخلفي في حافلة المدرسة وتحول طنين النحلة الي نعيق غراب ظل يتبعني فوق تلك النافذة التي دعمت رأسي طوال الطريق؛
" إن استمر تدليلك له فسينتهي الأمر برجل خنث"

بقيت تلك القسوة وصية في فم الغراب، يمررها من فم الي فم حتي تحول الفصل الي حقل من الغربان، يمتزج فيه النعيق مع الضحك ولم أكن في وعي لأدرك تماما ما يحدث ولكني أدركت بنصف وعي حين ركض الجميع مشمئزا وهو يردد؛

-لقد تبول طارق علي نفسه!

~~~~~~~~~~~~~~

السابعة صباحا

ها قد مر خمسة وعشرون عاما علي ذلك التوقيت، لم يعد صوت أمي يوقظني ولا إنذار المنبه، فقط تلك الساعة البيولوجية والتي تبرمجت بشكل دقيق علي ذلك التوقيت حتي في أيام العطلات.

كانت مريم مازالت نائمة بعد أن توقفت عن الاستيقاظ مبكرا لتجهيز الفطور منذ عدة أعوام، لم أسألها يوما فيهم عن السبب ،اتجهت نحو الحمام ووقفت عاريا أمام المرآة ، أمسكت بماكينة الحلاقة الكهربائية وضغت علي زر التشغيل ولكني لم ألمس وجهي.

تسمرت مكاني طويلا أنظر الي ذلك الشخص في الجهة الأخري وكان ينظر الي بتعجب ينتظر أن ابدأ ، شعرت بدبيب خوف يتسرب الي قلبي لكنه في المقابل كان لايزال ينتظر.
~~~~~~~~~~~~~~

تمنيت للحظة أن أغلق عيني وأنا أحلق ذقني لكني كنت خائفا لأني كنت أعرف أنه سيظل يراني ، ذلك الوجه في المرآة يحمل ملامحي كنسخة أخري مني ، نسخة تبدو أسعد حالا ،أصغر عمرا ، أكثر حياة ،حتي إن ذقني تبدو أقصر فيها عن شعوري بها حين تحسست وجهي.

أغلقت الماكينة فعاد الصمت بعد ذلك الصوت المزعج والذي لم الأحظه سوي بعد أغلاقها.

تحاشيت النظر اليه من جديد واتجهت الي حوض الأستحمام وشعرت براحة خفية أن لا مرايا معلقة هنا فكيف كان سيبدو عاريا! ربما أطول مني أو ربما لديه مؤخرة أكبر من تلك الأشبه بلوحي خشب متصدع أو ربما كان لديه.. يا الهي فيما أفكر!

"إنه أنا في النهاية"
قلت لنفسي وأنا أحاول مسرعا أن أخرج من الحمام أو بالأدق أن أخرج من رأسي.

وصلت الى سيارتي الشاهين الزرقاء أخيرا وأدرت المحرك لكن شئ لم يحدث. لم تتحرك! انتظرت قليلا وأنا أتأمل ذلك

العصفور علي المرآة الجانبية وكأنه يريد شئ ما بتلك التغريدات المتتالية، توقعت أن يكون شديد العطش في ذلك النهار الحار من شهر أغسطس ، وضعت له قليل من الماء في غطاء كوب مراد والذي قد نسيه في السيارة في طريق عودتنا من الأسكندرية، أمسكت به ناحية الشباك، شرب بشراهة حتى كاد يدخل بجسده داخل الغطاء ثم طار.

-لا شكرا إذن!
قلت في نفسي

حاولت إدارة المحرك من جديد وقد دار، لكني حين أعدت النظر إلى شاشة القيادة، لمحت تلك الإشارة الحمراء بارتفاع الحرارة !

أضفت الماء إلى الراديتر وانتظرت قليلا ثم تحركت.

-شكرا لك!
كنت مازلت أحدث الطائر رغم اختفائه.

لا تحتاج القيادة في ذلك البلد سوي شيئان؛ الصبر وأن تعرف الي إين تتجه تلك الكباري!

كان ذهني مشغول طوال الطريق بذلك الأجتماع لمناقشة الخطة التسويقية الجديدة لأرض الأحلام، في محاولة بائسة لأثبت أني موجود بشكل أو بأخر في ذلك المكان والذي أظن أن أغلب موظفيه لا يعرفون اسمي حتي الآن علي الرغم من مرور أربع أعوام على وجودي هناك!

ربما الخوض في منافسة لأثبات نفسك أصعب بكثير حين تكون في مكان لا تنتمي اليه أو لست مقتنع بما تفعله، لكن العمل في الدعاية يتطلب منك أن تحول قطعة خردة بالية الي شئ ذو قيمة والا ستتحول أنت نفسك إلي خردة.

كنت أود أن أسمع أي صوت في ذلك النهار، أي صوت بخلاف أبواق السيارات والسباب الصباحي وأفكار رأسي الأعلي من كليهما.

فتحت الراديو وانتظرت طويلا فوق الكبري المتكدس بالسيارات والذي لن تعرف أبدا سبب ذلك الزحام فوقه حتي بعد أن تخرج منه.

جاءت تلك الأغنية الأجنبية لتكمل الصورة التي أحاول تمزيقها منذ الصباح دون جدوي:

"أنت تعرف أنني حاولت أن أكون مناسبًا
لكن هذا لن يحدث أبدًا
أشعر أنني أعيش ، أعيش في قفص
ليس الكتاب الصحيح ولا الصفحة الصحيحة
ليس الأمر كما يجب أن يكون
لم يكن أبداً ولن يكون كذلك أبداً"*

*أيڤربلاي

~~~~~~~~~~~~~

طارق عيد!

إن كان من الصعب وصف الأشخاص بحيادية فلك أن تتخيل وصف نفسك! والحيادية هنا ليست صراع بين شعور و فكر ، لكنها صراع بين من أنت ومن تود أن تكون.
~~~~~~~~~~~~~

و الغريب في الأمر أن رؤيتنا لأنفسنا قد تختلف كثير عن رؤية الناس لنا وهذا ما يثبت أننا أحيانا نري أنفسنا كما نتمي أن نكون.

ربما أكون زوج جيد أو هكذا تمنيت، ربما أكون أب جيد و رجل ناجح أو هكذا تمنيت أيضا!

لكن ما أعرفه جيدا ويمكن للكل أن يراه، أنني لم أستطيع تحقيق أي ربح مادي في حياتي وأنني شخص شديد الهدوء قلما تحدثت وأنني أكره المرايا على الرغم من أني أملك وجه ذو ملامح جذابة -كما قيل لي- وجسد نحيل بعض الشئ.

بعد الزواج ضاقت حلقة الأصدقاء فما عاد سوي واحد أو اثنين زوجاتهم صديقات لمريم، نلتقي في المناسبات لنتحدث عن أمور يشترك فيها كل سكان الأرض مثل؛ غلاء الأسعار ، مصروفات المدارس ، كرة القدم..

لم أتخيل نفسي أبدا في بدلة رسمية وربطة عنق وها أنا الآن أرتديهم رغم شدة الحر!

وفقا لقيد الميلاد فأنا الأن في عمر الخامسة والثلاثين منذ يونيو الماضي لكن الغريب في الأمر أني لا أذكر كيف مضت أخر عشر سنوات من عمري ! و كأني فجأة استيقظت لأجد نفسي ممسك بيد مريم وهي في ألم المخاض وفي اليد الأخري ملف "أرض الأحلام".

~~~~~~~~~~~

وصلت أخيرا إلى شركة " الأحلام" وعلى الرغم من اسمها إلا أنها لم تكن سوى شركة صغيرة تتكون من شقتين متقابلتين في الدور الثاني في أحدي عقارات وسط البلد. حتى تلك اللافتة المعلقة على النافذة في الخارج لم تكن لتلفت انتباه أي شخص إلا إن وقعت على رأسه بذلك الخط الأزرق الباهت و الاضاءة الصفراء الشاحبة!

كنت أعمل طوال الفترة الماضية كما طلب مني في وضع رؤيتي الدعائية عن أرض الأحلام والتي لم أري منها سوى تلك الماكيتات في استقبال الشركة وغرفة المدير العام وڤيديوهات الإنفوجرافيك المعادة طوال النهار على الشاشات المعلقة في المدخل الرئيسي وغرفة الاجتماعات. فكان من السهل أن أعرف دون ان أسأل سؤال غبي قد يثير غضب
~~~~~~~~~~~

أحدهم أن أرض الأحلام ما هي الإ حفنة من التراب ! و دوري الأن أن أقنع العميل أن ذلك التراب أثمن من أي تراب أخر في هذه البلد.

كنت الأخير حين وصلت الي غرفة الاجتماع، أمام الطاولة المستديرة جلس مديري المباشر ومدير المبيعات بجواره وفي الجهة المقابلة المدير العام ، أعتذرت عن التأخير فور دخولي لكن أحد لم يجب، فأسرعت في توصيل الحاسوب بالشاشة الكبيرة مما أضاع خمسة دقائق أخري كنت أسمع فيها شهيق و زفير كل منهم، مما زاد من توتري و كاد الحاسوب أن يقع من بين يدي.

ثم فجأة قطع صوت المدير العام الصمت بلهجة باردة شعرت فيها بشئ من التحدي :
- هيا يا طارق، أخبرنا عن فكرتك عن المشروع الجديد.

حاولت بلع ريقي بصعوبة ثم قلت وأنا أنظر الي مديري المباشر كنوع من الطمأنينة:
-إنها العزلة يا سيدي.
-العزلة! هل هذه هي الرسالة التي نريد وصولها الي العميل؟
سألني بتعجب فأجبته بنعم

حينها أضاف مدير المبيعات بلهجة ساخرة:
-لابد من أن طارق يهدف إلى فئة معينة ممن يعانون من الاكتئاب.
ثم ضحك وضحك معه المدير العام لكن مديري ظل ينظر الي وكأنه يطلب مني أن أكمل الحديث.

حاولت أن لا أظهر أي استياء فابتسمت و قلت محدثا مدير المبيعات:
-بل هدفي الذين يخشون الأكتئاب.
-برجاء توضيح فكرتك يا طارق، لقد أضعنا وقت كثير بالفعل.
قال المدير العام بنفاذ صبر وهو يحرك قلمه الباركر الذهبي بين أصابعه.

-أعني لماذا يبحث الناس عن زجاج عازل للصوت وسيارات مرتفعة عن الأرض حتي وإن لم تكن ذات دفع رباعي؟ لماذا يفضلون وسائل التواصل الاجتماعي لتصفح صور الممثلات ويضحكن علي ڤيديوهات التننمر فضلا عن شراء جريدة أو متابعة قناة أخبارية! أليس ذلك نوع من العزلة؟

أنت نفسك كمثال-موجها كلامي الي المدير العام- لك أن تتخيل يومك وأنت خارج من بيتك في الصباح في سيارتك المرسيدس الفارهة ، تتحرك في شوارع ضيقة محاولا تفادي عشرات الحفر ، تقف في إشارة المرور فيظهر حولك فجأه مجموعة من المتسولين يطرقون زجاج نافذتك بأيديهم الملوثة كزومبي متحركة في فيلم رعب و مجموعة أخرى تركض في اتجاه حافلة النقل هربا من الوقوف في ذلك الطقس بالساعات حتى وإن لم يكن هنالك مقاعد -كالعادة- وقد يوجهك ذلك الـgps للهروب من الزحام الي شارع غارقا في المياه -علي الرغم من أنها لم تمطر أبدا- تبطئ سرعتك فيصطدم بك أحدي العربات الصغيرة السوداء الأشبه بالخنافس العمياء ، تتحرك في أي اتجاه وفي كل اتجاه وخلف مقعد القيادة قد ترى طفل لا يتعدى العشرة أعوام!

لا أظن أن الطبقة التي نستهدفها تود أن تسمع عن مسبح السباحة أو عن حدائق خضراء و مولات للتسوق! فكل ذلك يعرفون طريقه جيدا. هم بحاجة الي معزل عن ذلك المشهد اليومي حتى لا يصابون بالاكتئاب.

صمت..

لا أدري كم مر علي ذلك الصمت، لكنه كان ثقيل للغاية وكأن الوقت تحول الي صخرة تزحف علي صدري ببطء شديد.

أوقف حركة القلم وقال دون أن ينظر الي:
-حاول أن تفكر في شئ جديد، شئ يليق بأرض الأحلام.
و كان بذلك قد انهي الاجتماع و هم بالرحيل و في ذيله مدير المبيعات ،علي وجهه ابتسامة ساخرة كانت هناك طوال الوقت حتي تخيلت وجهه قد يتشقق من الألم! أما مديري فبقي قليلا في الغرفة يحاول أن يقول أي شئ ولكن الكلمات وكأنها حشرت في حلقه، لكنه تمكن أخيرا وقد قام من كرسيه ووضع كفه علي كتفي؛
-ابتعد عن الواقع قليلا يا طارق، حاول أن تستخدم خيالك.

ركضت الي الخارج و قد شعرت بتلك الربطة حول عنقي تزداد ضيقا، خلعتها بعنف وأنا أنزل على الدرج، حتى وصلت أخيرا إلى السيارة والتي كنت قد ركنتها في حارة جانبية بجوار المبني ،أدرت السيارة وفتحت النوافذ كلها أحاول التنفس ، لكن الهواء كان يضيق في صدري بشكل مبالغ فيه حتي شعرت أن الدماء تنسحب من وجهي وأنه

يتجمد رغم قطرات العرق المندفعة فوق جبيني فنظرت في المراة الأمامية في حذر متوقعا أن يكون تحول الي اللون الأزرق ، لكني حين دققت النظر رأيت وجهي.... يبتسم!

فزعت وأبعدت رأسي و شعرت الهواء ينفذ أكثر من رئتي، أطفأت السيارة وركضت الى الخارج أخشي الاختناق، لكني شعرت أن شئ ما يتبعني، تلفت حولي كالمجنون فوجدته! ساكن لا يتلفت مثلي. تحركت بعيدا محاولا أن لا أنظر اليه، كنت أعرف أنه يتبعني .في حركة ثابتة ظل يتحرك بجواري علي الرغم من سرعتي.

وصلت إلى النيل أخيرا، وقفت مستندا الى السور ،و قد وقف بجواري. نظرت طويلا اليه، كان يبدو أطول قامة مني و جسد ممتلئ عني، ثم جاء ذلك الصوت الكهل من خلفي؛
-لا تخشي ظلك، فما هو الا أنت في عالم أخر.

اقترب العجوز مني ووقف بجواري فاختفى الظل و تمنيت في تلك اللحظة لو اختفيت أنا وبقي هو.

كان وجهه مجعد الى الدرجة التي تداخلت فيها ملامحه، فلم يبق سوي أنفه المدبب كعظمة بارزة وكأن لا جلد يكسوها.

نظر طويلا الي النيل وساد بيننا صمت ففكرت أن أعود الي سيارتي لكني قبل أن أمضي بدأ يتحدث وكأنه يحدث نفسه؛

-لقد كان يقف هنا في نفس مكانك قبل أن يقفز! ظل الناس يضربون كفا علي كف وهم يرددون ذلك السؤال الغبي؛

لماذا فعل ذلك؟ لكن سؤال واحد كان يطرق ذهني أتدري ما هو؟

لم أجب، ولم يكن ينتظر أجابتي فسرعان ما أكمل:

-تري ماذا شعر وهو يسقط؟ سقوط حر!

ثم نظر الي بعدها وهو يكمل حديثه وكأني أنا المعني تلك المرة:

-عندما تتنازل عن حياتك لتحيا في ثوب رجل أخر. فهذا هو السقوط الحر.

~~~~~~~~~~~~~~

تائه كطفل صغير في الزحام أسقط يد أمه، تناسيت الطريق إلي الشركة و فقدت وجهتي إلي المنزل، تسمرت قدماي إلي الأرض و كأني قد تحولت إلي واحد من أعمدة الأضاءة تلك المطفأة حولي، تحرك قرص الشمس ليتعامد فوق رأسي
~~~~~~~~~~~~~~

تماما فازدادت حرارة الأفكار بداخلها كفتيل سريع الاشتعال يوشك على الفتك بها.

"ابتعد عن الواقع..استخدم خيالك"
أي نصيحة تلك التي نصحني بها مديري! فما الخيال الا واقع جملت ملامحه بمساحيق تجميل مستهلكة حتى تخفي أثار شيخوخته المبكرة، فلا أفكار تخلق من العدم.

بحثت بعيني عن بقعة زرقاء صافية بعيدا عن أطراف النيل الباهتة والمراكب الصغيرة المارة كل دقيقتين محدثة صخب عالي بأغاني المهرجانات ،ولا أدري إيهما كان يثير غضبي أكثر؛ الايقاع الرخيص أم صوت المسجل نفسه والذي زادها رخصا!

حاولت البحث عن خيالي في ذلك القاع الغارق فيه والذي ملأ صدري حد الاختناق! تري عن ماذا يبحث الناس في أخيلتهم ليقدمه لهم واقع أرض الأحلام؟ ترى أي حفنة من تراب يمكنها أن تشعرهم بالرضا؟

مرت امرأة تخفي وجهها خلف النقاب، عبائة رثة ،تحمل في يدها كيس بلاستيكي أسود، وقفت أمامي وقبل أن تحكي لي

قصتها شعرت بغبطة خفية أنها قد اختارتني لمهمتها، فقد بدأت أشعر بالذوبان تحت تلك الشمس حتى أني ظننت بأني لم أعد مرئي!

حكت لي عن ابنتها الصغيرة الراقدة في المشفى وعن تكلفة العلاج التي لا تملكها وعن بيتها المهدد بالسقوط و زوجها الذي ترحمت ذكراه يوما كان موجود، وددت لو اسألها إن كانت لجأت إلي خيالها من أجل نسج تلك القصة وكم مرة روتها؟ لكنها بالطبع كانت لتكذب ،أعطيتها بعض المال وشكرتها فهمت راحلة وهي لا تفهم عم اشكرها ربما ظنت بأني مجنون أو مريض أهذي خاصة في تلك الهيئة التي صرت عليها بقميصي المفتوح من أعلي والعرق الذي غسل شعري ونثر كل خصلة منه في اتجاه، لكن بداخلي كنت أشكرها لأنها نجحت في دمج الخيال بالواقع بطريقة جيدة حتى أني تخيلت أبنتها في سرير المشفى والتي قد لا يكون لها وجود.

رن هاتفي فإذا بمريم تسأل ألف سؤال في نفس واحد؛ أين أنت؟ هل أنت بخير؟ لقد أتصل مديرك فهل حدث لك مكروه ما؟ لماذا تركت الشركة؟ هل تعطلت سيارتك؟

لم تكن لتنتهي من الأسئلة أبدا حتى قاطعتها بصوت محموم؛
-أنا في الطريق إلى المنزل.
وأغلقت الهاتف.

و كأني كنت أنتظر تلك المكالمة لأعرف إين علي أن أذهب.

في السادسة مساء اجتمعنا علي طاولة الطعام، أرى الأسئلة مازالت تدور في عيني مريم ، لكني كنت أبدو كشبح صامت وسطهما فأدركت أن صمتها هي الأخري هو الخيار الأفضل.

لا أعرف إن كانت مريم قد أحببتني يوما، لكن ذكاؤها كان كافيا لتعرف كيف تبقي ذلك الزواج مستمرا، تعرف متى تتكلم ومتى تصمت، متى تشكو ومتي تطلب، متي يتسع صدري فتتحدث عن دراسة مراد و مصروف الشهر الذي لا يكفي عشرة أيام منه وعن رغبتها في العمل لشراء ما تحلم به كأي امرأة وعن ضرورة إنجاب أخ أو أخت لمراد ومتى يطفح بي الكيل فتصمت و تتحول إلي امرأة راضية مستسلمة لقدرها.

سألني مراد ببراءة طفل:

-أبي هل يمكننا أن ننتقل إلي بيت أكبر كتلك البيوت التي أراها في الفيديوهات ؟

نظرت اليه كمن يحاول أن ينزع غمامة من فوق عينيه وبقيت أحدق النظر فيه وكأني أراه لأول مرة ، كان نسخة مصغرة من مريم ،لا يحمل من ملامحي شئ ولا أعرف إن أحزنني الأمر أم لا ، لكني دوما ما حمدت الله أنه ولد معافى فطوال حمل مريم به ، كنت أتخيل تلك التشوهات التي قد تنتج عن زواج الأقارب حتى إن في كل زيارة للطبيب كنت أسأله أثناء الفحص بأشعة السونار" لماذا تبدو أنفه معوجة و رأسه مدبب هكذا؟" فتجيب مريم قبل الطبيب وكأنها تقرأ أفكاري " مازال جنين ينمو يا طارق، أرح نفسك" حتى تلك الليلة قبل ولادته باسبوع حلمت أني أحمله بين يدي في لفافة بيضاء مغطي بها كالكفن وحين حاولت نزعها عن رأسه وجدت رأس أرنب، فزعت واستيقظت من نومي أنظر الي بطن مريم التي بدت علي وشك الانفجار في حالة من الهلع و أنا أفكر ماذا إن تحول ذلك الكابوس إلي حقيقة!

-أبي!

كنت مازلت أحدق فيه فتذكرت سؤاله لي منذ قليل، لابد أن شرودي ذلك قد زاد من قلق مريم.

-وماذا في تلك البيوت يا مراد؟
-لديهم حديقة كبيرة و مسبح خاص..

سكت قليلا وكأنه يتذكر ثم أكمل..و " سلالم الكثير منها"

-و أنتِ يا مريم؟ هل تحلمين ببيت فيه الكثير من السلالم؟
-بالطبع لا، فالبيوت الكبيرة صعبة التنظيف.
لم أعرف إن كانت تعني ذلك حقا أم أنه نوع من السخرية!

شعرت برأسي ملتهب أثر شمس النهار وعلى الرغم من ذلك كانت هنالك رجفة تسري في جسدي، تركت الطاولة و أختفيت تحت الغطاء وكأني أحاول الهروب.. من رأسي ، من واقعي ومن خيالي و الذي مازلت أبحث عنه.

~~~~~~~~~~~~~~~

اعتدت سماع ذلك اللحن كثيرا دون أن أعرف اسمه، خاصة في تلك الليالي بعد خروج أبي من المنزل.
~~~~~~~~~~~~~~~

كنت أشعر بها تحتاج ذلك الوقت وحدها، فكنت أستمع اليه من غرفتي وأتخيل شكل أصابعها الطويلة وهي تتنقل بين الأبيض والأسود كفروع خضراء غضة تتداخل لتعانق بعضها البعض، على عكس فاتن حيث تظهر ملامح السأم علي وجهها كل ما سمعت صوت البيانو لتعلق ساخرة بصوت منخفض حتى لا تسمعها أمي؛

-كنت أتمني أن تعرف كيف تدق الدرامز ! شئ أكثر حياةً من تلك الكآبة!

تلك الليلة خرجت من غرفتي ووقفت أراقبها من بعيد، كان شعرها الطويل المنسدل نحو منتصف ظهرها يتمايل مع حركة كتفيها متراقصا فرحا.

اقتربت منها و تحسسته برفق فتوقفت عن العزف و نظرت الي الخلف مبتسمة ؛

-ماذا تريد أن تسمع أيها الفتى الوسيم؟

-أريد أن أتعلم العزف مثلك.

وسعت ابتسامتها فازداد وجهها إشراقا

-تتعلم؟ هذا قرار جرئ، لكنه أسعدني حقا.

سرحت قليلا فلم أعرف فيما تفكر ثم قالت بصوتها الدافئ:

-لنبتدي إذن بلحن بسيط، ما رأيك في لحن عيد الميلاد ؟

تحركت نحو طرف الكرسي المخملي فجلست بجوارها ثم أجبتها برد قاطع؛
-بل أود تعلم ذلك اللحن الذي تعزفيه دائما.
اتسعت عيناها وضحكت بعذوبة:
-"قلبي دليلي"؟ هذا لحن صعب ، لكن لماذا ؟هل أحببته إلي ذلك الحد؟
-بلي! لكن لأنك تحبيه كثيرا.
اقتربت مني وعانقتني ،كنت أعشق رائحة الياسمين التي تضعها دائما حتي أني شككت بأنها تخرج من تحت جلدها، قبلتني في رأسي ثم أمسكت بوجهي بين كفيها وهي تهمس لي:
-هل تعلم يا بني أني أحبك أكثر من أي شئ في العالم؟
هززت رأسي بنعم مبتسما وبدأنا حصتنا الأولي.

~~~~~~~~~~~~

الخامس والعشرون من شهر يونيو.

اليوم الأخير في امتحان الصف الأول الثانوي، فتحت لي فاتن الباب عند عودتي ثم دخلت إلي غرفتها لتكملة مكالمتها الهاتفية مع صديقتها.خلعت حذائي عند الباب ووضعته في رف الأحذية كما عودتنا أمي ، لمحت كل شئ من حولي
~~~~~~~~~~~~

فور دخولي منمق و نظيف كما هو دائما،الورود الحمراء في المزهرية الشفافة لا أدري كيف لا تذبل أبدا!
الطاولات تعكس الضوء كالمرايا و المفارش ناصعة البياض. علي الجدار علقت حروف أسمي بالبالونات الملونة وتحتها عبارة " عيد ميلاد سعيد " في إطار بداخله صورة لي من العام الماضي.

تصاعدت رائحة الشوكولاتة الشهية حتى أني تخيلتها وهي تذوب على أركان الكعكة داخل الفرن.

في المساء اجتمعت أسرتنا الصغيرة على الأريكة كما رتبت أمي جلوسنا استعدادا لذلك الحدث المهم كما كانت تراه، أطلت حاملة الكعكة بفستانها الأبيض القصير وكعب عال و علي وجهها ابتسامة لا تفارقه حتى بدت كعروس سقطت علينا من السماء.

بعد أن أطفأنا الشمع، قبلتني فاتن وتمنت لي عمر طويل وهي تهديني كتاب " كيف تصبح مليونيرا" ضحكنا جميعا وشكرتها ووعدتها بأن أقاسمها ثروتي إن نجح الأمر ثم أهدتني أمي تي شيرت بولو أزرق اللون وقبلت جبيني وهي تخبرني؛

-وددت أن تبدأ اجازتك بلونك المفضل.
لم أنتظر حتي أدخل غرفتي ،ارتديته فوق ملابسي سريعا وشكرتها وأنا أقبل يدها.
ثم جاء دور أبي والذي كان صامتا طوال الوقت، أمسك بشئ خلف ظهره ثم قذفه في وجهي فأدركت بأنها كرة قدم ثقيلة كانت لتكسر أنفي إن لم أمسك بها سريعا.
-لقد أشتركت لك في تدريب كرة القدم في النادي، ستبدأ من الأسبوع القادم.
ثم ساد صمت طويل تجرأت فيه أخيرا لأنطق؛
-لكنك تعرف يا أبي أني أكره كرة القدم.
نظر إلي باشمئزاز ثم سألني وهو يهز رأسه مستنكرا:
-ماذا تحب إذن؟ أن تعزف على البيانو مثل البنات؟
قاطعت أمي حديثنا خشية أن يتحول إلى مشاجرة كلامية ستترافع هي عني بلا شك؛
-لنؤجل ذلك الحديث فيما بعد، دعونا لا نفسد أمسية احتفالنا بذلك الشاب.

ثم تصورنا، تلك الصورة التي لم يبقي منها سوي أنا وأمي في المنتصف وهي تحيط كتفي بذراعيها وكأنها تحميني من خطر قادم،كنت ممسكا الكرة بوجه كئيب، أما ما تبقى من الصورة فقد مزقته بعدها على الرغم من أنه لم يمزق بعد من

ذاكرتي الا وهو أبي بوجهه العابس مرتديا بيجامة النوم وفاتن تخرج لسانها وهي تشير نحوي.

بكيت كثيرا تلك الليلة، كانت تلك المرة الأولي التي أبكي فيها بتلك الحرارة منذ ذلك اليوم في المدرسة حين كنت مريض، كان صوت الشجار في غرفة أمي يصل إلي مسمعي غير واضح تفاصيله لكني كنت أعرفها جيدا،كنت أكره ضعفي، صوتي المخنوق الذي تحمله أمي للدفاع عني في كل مرة.

دخلت فاتن واقتربت مني ثم همست بصوت خافت؛

-أبي يقول " الرجال لا تبكي".

~~~~~~~~~~~~~

في ضوء الغرفة الخافت رأيت ظلالهم تتحرك حول السرير ، وقف مديري علي يميني و مدير المبيعات علي يساري ، أما المدير العام فظل يتحرك ذهابا وإيابا امام عيني كبندول الساعة ثم قفز فجأة فوقي كالجاثوم وأمسك عنقي بين يديه وهو يصرخ؛

-ماذا بك؟ الا يمكنك تخيل طفل يركض في حقول خضراء ممسك بطائرة ورقية ويضحك؟ الا يمكنك تخيل امرأة جميلة
~~~~~~~~~~~~~

بجسد ممشوق ترتدي زي السباحة وتقفز في بحيرة شديدة الصفاء ؟ الا يمكنك تخيل ليل علي الشاطئ و رجل وامرأة يتعانقان تحت ضوء القمر؟ الأ يمكنك أن تحلم؟ أفتح عينك يا غبي! هنالك عوالم أخري فلا تظن نفسك حي هنا.

شعرت بأصبعه داخل فمي وكأنه يحاول أن يخرج لساني ، حاولت الإمساك بيده و أبعاده عني لكني سمعت صوت مريم تلك المرة ؛

-يا ألهي! أنت تهذي يا طارق. حرارتك تعدت التسعة وثلاثون، لابد من أن أصابك ضربة شمس.

أشعلت ضوء المصباح بجواري فرأيتها تبحث عن شئ على الطاولة وفي أيديها ترمومتر الحرارة.

سمعت أشياء تسقط على الأرض وشعرت بهرولتها في الغرفة حتى عادت ممسكة بعلبة كريم حاولت وضعه على وجهي، أمسكت بيديها وحاولت دفعها وأنا أسألها عما تفعل.

-وجهك شديد الالتهاب ! أين كنت طوال النهار؟

أطفأت المصباح وطلبت منها أن تتركني وحدي، حاولت التحرك للذهاب إلى الحمام لكني وجدت صعوبة في التحرك

، حاولت مساعدتي فأبعدت يديها من جديد و استندت على الحائط حتي وصلت.

كان الظلام يحيط بكل شئ حولي، تري كم الساعة الأن وكم مر علي وأنا نائم ؟

فتحت باب الحمام وشعرت بحركة بداخله ،لم اجرؤ على فتح النور فهمهمت بصوت منخفض؛
-مراد؟ هذا أنت؟
ثم سمعت صوت المياه تندفع في المرحاض، فبقيت مكاني لا أقوى علي الحركة، أشعر بقلبي ينتفض في صدري ثم شعرت بهواء فجأة بجواري وكأن شخص قد مر بي.
تشجعت أخيرا وضغطت على زر النور، لكني لم أري شئ.

لا شئ! لم يكن هناك أحد. بعد أن أنتهيت وقبل أن أعود إلي سريري ، اقتربت من المرآة في حذر لرؤية تلك الحروق التي ذكرتها مريم، لكن لم يكن هنالك أثر لها! مازالت صورتي كما هي، أصغر ، أجمل وأسعد!

عدت إلي سريري وقد طرق ذلك السؤال في رأسي فجأة؛

هل يمكن لمريم أن تكون وضعت صورة قديمة لي فوق المرآة؟ لكني قبل أن أجد أجابة كنت قد غفيت.

~~~~~~~~~~~~~

كيف يمكن لضربة شمس أن تحبسك في الظلام ؟ كل شئ حولي مظلم فلم أستطع أن أعرف في أي وقت كنا صباحا أم مساء ، لابد أن مريم لم تفتح ستار الغرفة أبدا خشية أن أصاب بصدمة عصبية إن لمسني ضوء الشمس من جديد، نمت كثيرا أو لم أنم أطلاقا، فقد كنت أشعر طوال الوقت أني في حلم لا أدرك أبعاد مصداقيته.أسمع صوت مراد يركض في الممر المجاور لغرفتي ثم صوت مريم يصرخ فيه كي لا يوقظني يقطع صراخها صوت مديري يخبرها بأني يجب أن أعود إلي المكتب.

صوت بيانو و لحن مزعج لا يمكن لأمي أن تعزفه! ثم نعيق غربان علي النافذة،فكرت كم يمكن أن يكون عددهم؟ و ما الذي قد أصاب هذه البلدة فجأة ليتكاثروا بهذا الشكل؟

كرهت ذلك الشعور بالعجز و رقدة السرير ، كنت أتقلب فيه كل ثانية وكأني أحاول نزع قيود غير مرئية! أبحث عن خيال من جديد، حاولت تذكر ما قاله المدير العام لكن المشهد
~~~~~~~~~~~~~

في رأسي كان أشبه بإعلان ممل كتلك الأعلانات التي تنتظر بفارغ الصبر العشر ثواني حتي تضغط تخطي الاعلان.

لم تحدثني مريم طيلة ذلك الوقت سوي بكلمات قليلة تسألني فيها إن كنت قد تحسنت ولا أعرف غاضبة كانت أم لا تحاول إزعاجي، تضع صحن الشوربة و الأدوية بجواري كمن يعتني بقطته الأليفة وتمضي. حتي أني لم أشعر بها بجواري علي السرير سوي في تلك الليلة.

تحسست جسدها في الظلام و كأني أشتهي أن تلمسني هي الأخري حتي أدرك أحي كنت أم لا، لكنها لم تتحرك، بقيت أحرك يدي فوق خصرها حتي مؤخرتها، لكني توقفت فجأة حين شعرت بجسدها متصلب كلوح خشبي، همست إليها ؛ مريم! لكنها لم تجب.

ظهر بعدها ضوء خافت من خارج الغرفة، حاولت فتح عيني جيدا كي أتمكن من رؤية ما بالخارج، رأيتها تتحرك علي أطراف أصابعها تضع صحن الطعام بجواري، لكني تمكنت من الأمساك بيدها قبل أن تمضي

-مريم! أكنتِ هنا منذ قليل؟

همست بصوت خافت كأن أحد ما لا تريده أن يسمعنا؛

-فقط الأن.
ثم رحلت وأغلقت الباب خلفها فعاد الظلام من جديد أشد حلكة.

~~~~~~~~~~~~~~~

الجميلات هنَّ الكبيراتُ
"مانجو مقشرةٌ ونبيذٌ معتق"*

جميلة!

لم يكن ذلك اسمها الحقيقي لكني هكذا تذكرتها دائما،و لا أعرف لماذا يوجد دائما علامة استفهام حول رجولة الرجل المرتبط بأمه؟

و لا ينقص فيّ شئ أن اعترف أن جميلة كانت و ستبقى الرمز الحقيقي للمرأة في حياتي، تعرف جيدا متى تكون الدموع سلاح قوة ومتي تكون علامة ضعف.

قطة برية بعيون ملونة تجبرك ان تطيل النظر إليها لتتأمل روعة الخالق، وديعة مادمت بعيدا عن أطفالها ، تشم
~~~~~~~~~~~~~~~

رائحتهم في كل ليلة حتي تطمئن أن لا غريب قد مر بهم في غيابها.

لم تشغل نفسها بأحلام لا طاقة لها بها، أحبت حياتها كأم وزوجة رغم ذكائها وحبها للموسيقى، و كنت أنا أحلم نيابة عنها فأراها تعزف علي مسرح كبير و أري الناس من حولها سكارى، تارة من اللحن الصاعد إلي السماء و تارة من الليل الساكن في شعرها.

تزوجت أبي بعقلها وعاشت معه به وسخرت قلبها لنا فقط ،أنا وفاتن، لكني كنت الأقرب إليها، ورثتني بعض من ملامحها الجميلة ومن هدوؤها وصبرها أما فاتن فكانت نسخة أخري من أبي بسمار بشرته وملامحه الحادة وطباعه الساخطة.

فكنت دوما أري خط وهمي فاصل في هذا البيت، فريقين لكل منهما صفاته وأساليبه في الربح، لكنها لم تشأ أبدا أن يظهر ذلك الصدع فقاومته بكل جوارحها حتى نبقي جميعا تحت مظلة الأسرة المثالية في إطار واحد.

أبي كان مؤمن أن القطط الصغيرة لابد وأن تترك في البراري وحدها حتي تتعلم الصيد، فكان دوما ما يدفعنا بعيدا لنتعلم كيف نواجه العالم وحدنا، وقد نجحت فاتن في ذلك واستطاعت أن تصنع عالم واقعي مبني علي القوة والتحدي ، كانت تعرف تماما ما تريد وغالبا ما تصل إليه، أما أنا فكنت أعود إلي أمي دائما ،أشكو إليها من قبح العالم وقسوته فتأخذ بيدي وترشدني من أين يجب أن أبدء وإلي أين اتجه.

جميلة كانت بوصلتي!

*محمود درويش

~~~~~~~~~~~~~

اعتاد منزلنا أن يعج بالناس في أيام الأعياد، خاصة عائلة عيد التي لا تفوت فرصة للأستمتاع بطاولة جميلة التي تضم أشهى المأكولات.

تستيقظ أمي قبل زيارتهم من الفجر وتبقي في المطبخ لصنع أطباقها الشهية؛ الديك الرومي المحشي بالأرز، مقلوبة الباذنجان والدجاج، محشي ورق العنب بالليمون وجميع أنواع السلطات التي يمكن تخيلها بداية من السلطة التقليدية
~~~~~~~~~~~~~

الخضراء وحتى السلطات الغريبة مثل سلطة الفراولة والريحان.

كنت أحب تلك الليالي فقط من أجل ذلك الوقت الذي نقضيه سويا أنا وجميلة في المطبخ، أقلب عنها القدور الساخنة وأخرج الصواني من الفرن وأقطع معها السلطة.

نتحدث عن كل شئ ، من بداية العام حتى نهايته ، عن الناس حولنا محاولين تفسير مشاعرهم وفك طلاسم شخصياتهم ، نبقي نثرثر كجارتين يلتقيان كل أسبوع لتبادل أخبار الحي بأكمله حتى ينضج الطعام وتنتهي مهمتي ولكن حديثنا لا ينتهي أبدا.

تفوح من المنزل روائح شهية تسيل لعاب المارين أسفل نافذتنا وتبعث شعور غريب باللمة والدفء.خاصة حين يمتلئ المنزل بعمي وعماتي وأولادهن على الطاولة العريضة، نركض أنا وفاتن نساعد أمي في وضع الأطباق التي لا أحد يصدق أنها صنعتها كلها وحدها.

عمي نبيل أول الحاضرين هو وزوجته نادين وولده خالد ومريم ابنته، ثم تحضر عماتي؛ ناهد بوجهها الساخر ولسانها

الذي لا يسلم منه أحد إلا الزوج الذي لم يظهر أبدا حتى بعد تخطيها الأربعين من العمر، وعمتي ليلي بولديها التوأم ووجهها العجوز - جدة العائلة- على الرغم من إنها لم تتخطى الستين من عمرها، لكننا اعتدنا أن نعاملها معاملة الجدة لشدة طيبتها ولأنها أكبرهم عمرا.

أثناء تناول الطعام كان لناهد جملة أو اثنتين لابد أن تلقيهم ليستريح لسانها وكأنه أفعى تتلوى في فمها تفسد هدوؤها:
-لا أحد يمكنه أن يصدق أن امرأة مدللة مثلك يمكنها صنع ذلك الأكل الشهي وحدها.
موجهة حديثها نحو أمي ، لكن أمي ابتسمت وأخبرتها في براءة أني ساعدتها كثيرا.
فلوت شفتيها قبل أن تقذف السم من جديد:
-عشنا وشفنا، الرجال يطبخون والنساء يتفرجن.
سكت الجميع وشعرت بإحراج أمي وفاتن، فقطعت الصمت قائلا:
-أظنك عشتي لكنك حُرمت من الكثير الذي لم تريه بعد.

ضحكت عمتي ليلى لتهدئة التوتر الذي أحاط بنا بعدما رأت أبي ينظر إلي في غضب فردت؛

-لم أري ولد يحب أمه مثلك يا طارق، أظنك تغار عليها أكثر من عيد نفسه.
ثم نظرت نحو ولديها وهي تلقي أمنية أن يملأ الحب قلبهما كما ملأ قلبي.

جمعتني بريم وأولاد عمتي صداقة لا تتعدي تلك المناسبات، كنا صغار نركض خلف الأبواب ونعد لعشرة حتى يختبئ أحد منا ويبحث عنه الأخرون.

مع مرور السنوات، تباعدت الزيارات حتى في الأعياد، فالعجز قد شل حركة الكل، وظلت مريم مجرد أبنه عمي التي نادرا ما أراها أو نتبادل أطراف الحديث. كنت أسمع أبي يقول دائما في تلك الزيارات: مريم لطارق وطارق لمريم، وكنت أظنه مزاحا يجري عادته في كل العائلات ، ولا أظن أن يوما تمنت مريم طارق كما لم يتمناها طارق أبدا.

~~~~~~~~~~~~~~~~~~

ها قد فتح الستار، أشرقت الشمس و عادت الساعة السابعة صباحا.
~~~~~~~~~~~~~~~~~~

تحركت ببطء شديد ، ألمس كل شئ كطفل يتعرف علي الأشياء للمرة الأولى، برودة المياه وهي تندفع فوق رأسي، مذاق القهوة المر التي أعددتها بنفسي دون سكر، أصابع قدمي المحشورة في حذائي الأسود، صوت المصعد حين توقف، حركة السيارة و هي ترتفع في مطلع الجراج.

لم يتغير شئ غير أني صرت أشعر بالتفاصيل أكثر من أي وقت مضي.

في الزحام اليومي فوق الكوبري وجدتها فرصة لأشاهد لوحات الإعلانات، كانت اللوحات تغطي الأفق كعالم موازي تود أن تقفز بداخله لتهرب من ذلك الزحام، صور لڤيلات مشابهة لتلك الماكيتات في شركتنا تحيط بها حدائق خضراء، نساء جميلات بملامح دافئة و سعيدة و كأنهن قد خلقن من رحم ذلك المكان و توقفت أعمارهن هناك، أطفال يركضون خلف الفراشات الملونة وأعيونهم تنبض بالحياة،ثم فوق كل صورة وعود بعالم مختلف يلاقي أحلامك و يناسب ميزانيتك!

فكرت إن كانت ميزانيتي قد تتناسب مع تلك الوعود ، فأي لوحة ستلتقي أحلامي بها؟ إنه اختيار صعب بلا شك فإن

وضعنا لوحة جديدة هنا عن أرض الأحلام ،ربما أنا نفسي لن أستطيع أن أتعرف عليها بسهولة، ثم أدركت الأمر الأصعب في ذلك الأختبار وهو أني بلا أحلام فكيف إن كان العميل الذي نبحث عنه مثلي؟ فلابد أن أعده أولا أن يحلم!

وصلت المكتب متأخرا كعادتي، و للمرة الأول كنت محور اهتمام وسط نظرات الاستنكار من الجميع وكأني أسير علي السجادة الحمراء في عرض " الرجل الخفي" لمحت الكثير من الأسئلة في أعينهم ، ربما كان أبسطها و أعقدها معا "من أنت؟"

رحب بي مديري وسألني عن حالي ثم قال ما يبدو محشور في حلقه منذ ذلك اليوم؛
-لا أعرف ما الذي أثار فزعك لتركض إلي الخارج هكذا وتختفي ثلاثة أيام عن العمل!؟ و لا أريد أن أعرف، لكن أتمني أن تكون قد توصلت إلي فكرة جديدة فالمدير العام في انتظارنا.

"ثلاثة أيام" ! وددت أن أخبره أني كنت هنا أمس وقبل أمس وأن كل ما رأيته كان منذ زمن بعيد، لكني سكت خشية أن

يتهمني بالجنون وتحركت خلفه إلي غرفة الطوارئ أقصد غرفة الاجتماعات.

لم يكن لدي أي فكرة عن ما سأقوله، وكأني أعيد نفس المشهد من جديد و ظهر فجأة في ذهني صوت مريم وهي تشتكي من غلاء الأسعار فطردته و طردت معه فكرة العزلة واستحضرت صورة المدير العام وهو ممسك برقبتي و صور الأعلانات فوق الكوبري فوجدت نفسي أتكلم بسلاسة عن الفكرة الجديدة:

-أسرة صغيرة يزين الضحك وجوههم، يتناولون العشاء علي طاولة تبدو كنقطة بيضاء وسط الخَضار المحيط بهم، تبدو السماء فوق رؤوسهم كبحر هادئ يعكس صورهم كنجوم متلألئة.

-لا بأس! أري أن خيالك قد تعافي في الأيام السابقة، لكن مازلنا في حاجة إلي رسالة واضحة، إلي قيمة ما يبحث عنها العميل.

سكت قليلا وهو يكتب شئ ما ثم أكمل؛

-لنفكر إذن من جديد و نشارك الأفكار ، ليست مهمة طارق فقط.
موجها كلامه إلي مديري ومدير المبيعات والذي كان يتثاوب وهو ينظر إلي.

بعد إنتهاء الدوام لمحت مدير المبيعات أثناء خروجي يجلس علي الطاولة الجانبية في استقبال الشركة و بجواره رجل وامرأة، وقفت ثواني أنظر إليهما وفجأة شعرت بثقل قلبي وهو يهوي سريعا حتي اصطدم بقدمي فشل حركتي تماما.

لابد من أنه قد شعر بالإحراج عندما نظر إلي ووجدني أمامه كمتسول ثقيل يود إبعاده.
-طارق! هل أنت بخير؟
سألني و هو يكشف عن أسنان أشبه بأسنان الحصان.
لم أجب فدعاني ليعرفني علي ضيوفه، استطعت التحرك بصعوبة لكني حافظت على مسافة متر بيني وبين طاولتهم.
-أقدم لكم طارق، مندوب الدعاية بإمكانه مساعدتكم في أي تفاصيل خاصة بالمكان.
ابتسم الرجل في تعجب فأكمل مدير المبيعات؛
-هؤلاء السادة من عملائنا الأعزاء ، الأستاذ-يحيي حبيب- رجل الأعمال الغني عن التعريف والسيدة حرمه مدام...

قاطعته؛

-نسرين!

~~~~~~~~~~~~~~~~~

كنت صغيرا لم أتعدي السادسة حين حلمت ببيت فوق الثلوج التي لم تبارك تلك الأرض أبدا ببياضها، فركضت إلي أمي اسألها.
-لماذا لا تسقط الثلوج فوق منزلنا؟
ضحكت ضحكتها العذبة وهي تخبرني إن بلدنا لن تتحمل ذلك الصقيع وإننا أعتدنا الدفء منذ نعومة أظافرنا، علمت بعدها أن الأمطار وحدها قد تغرقنا ،فبعض الخير قد يتحول إلي نقمة، تماما مثل حبي لجميلة، كان مطر يزهرني ويمنع جفاء أبي من الوصول إلي، لكن ذلك المطر كان لا ينقطع فأغرقني حتي تحول المطر إلي مرض.

الحب درب من دروب الجنون، حبل رفيع تتحرك فوقه علي أطراف أصابعك فإن لم تحفظ توازنك فأنت هالك لا محالة.
~~~~~~~~~~~~~~~~~

لم أخبر جميلة بأننا كنا نرقص سويا علي الثلوج وأنها كانت تحملني كلما سقطت، لم أخبرها أني رأيت أبي وفاتن كتمثالين من الثلج بلا روح، لم أخبرها بأني من وسط كل أصدقائي أخترتها هي لنقذف كور بيضاء في الهواء ونركض بعيدا عن ذلك البيت نحو ضوء بعيد.

أعتدت أن أشكو إليها من كل ما يزعجني ، بداية من ذلك الصبي السمين الذي كان يتنمر علي نحافتي ملقيا نكات سخيفة يشبهني بأعواد القصب أو بآلة الفلوت حين أتكلم وكأن أحد ما ينفخ في أذني ليخرج صوتي، أركض إليها فتحتضني وتخبرني بأن لا داعي للحزن فالعالم ملئ بنفوس غير سوية تتلذذ بجرح مشاعر الأخرين لتغلب مخاوفها، أرفع رأسي نحو وجهها وأسألها إن كان أبي واحد منهم، تقطب جبينها وتخبرني بأنه لا يجب أن أفكر في أبي هكذا أبدا.

حين وصلت إلي عمر الثانية عشر ، كنت مازلت ذلك الصبي الصغير الذي يقضي يومه بين حضن أمه وبين لعب الكورة مع أصدقائي الذين لاحظوا كثرة حديثي عنها ، حتي أقترب مني أحدهم في ذلك اليوم بعد أن ربح فريقنا فرددت دون أن أشعر.

-سوف تسعد أمي كثيرا حين تعلم.
همس إلي حتي لا يسمعه أحد:
-لابد أن تتوقف عن ذكر أمك طوال الوقت، أنت رجل!
سألته لماذا يتحدث وكأنه أبي، وما الضرر في أن أكون مقرب إليها.
ضربني علي مؤخرة رأسي وهو يخبرني:
-يا غبي! لقد أحتلم بها أحد أصدقاؤنا ، فأنت لا تتوقف عن وصفها! لا تكن أحمق هكذا.

لم أفهم وقتها كلام صديقي ولم اسأله خشية من أن أبدو أكثر حماقة، حتي تلك الليلة حين زارتني جارتنا الصهباء و أزالت عني وشاح الطفولة بجسدها الأشبه بسياط حارة تسقطها علي جسدي، حينها استيقظت فوجدت نفسي مبلل بسائل لزج أراه لأول مرة.ركضت نحو أمي لأخبرها، تورد وجهها ثم أخذت نفس عميق محاولة التحدث بشكل لا يخدش حياء أي منا.
عرفتني أن الأحتلام هو بداية مرحلة جديدة في حياتي وأني أصبحت شاب ثم همست لي في كسوف:
-قد تجد نفسك منجذب أكثر للبنات وقد تتكرر معك تلك الرؤي فاحذر يا بني أن تكسر قلب أحدهم أو أن تغضب ربك.

حينها ركضت إلى منزل صديقي في غضب أعمى عيني فأمسكت به من رقبته حتى كاد يختنق أسأله عن اسم صديقنا الذي حلم بأمي، رفض ولكمني في أنفي حتى نزفت ، فخرجت من منزله وابتعدت عن كل المجموعة التي كنت أنتمي إليها منذ صغري.

رددت في نفسي؛
-لا بأس يمكنني صنع صداقات جديدة، بل يمكنني حتي أن ألعب مع الفريق المنافس. لا شئ يستحق الحزن طالما أمرتني جميلة بأن لا أحزن.

~~~~~~~~~~~~~~~~~~

طرقت الباب مرتين قبل أن تفتحه، أطلت بشعرها الملفوف حول عصيان ملونة أشبه بالنقانق.دارت في أركان الغرفة محتضنة سلة الغسيل كمن يبحث عن فأر هارب. ترمقني بنظرة بطرف عينيها و تبتسم، كنت ممسك بهاتفي حين اقتربت مني تشمني وهي ترفع حاجبيها وكأنها تبحث عن أثر لجريمة ما.
لم أقاوم الضحك وأنا اسألها:
-ماذا تفعلين يا أمي؟
~~~~~~~~~~~~~~~~~~

-أبحث عن ما يخفيه الصبي وتكشفه عينيه.ما أسمها؟
سألتني
-كيف تعرفين كل شئ؟
-الأ ترى قرون الاستشعار تلك؟ ما اسمها إذن؟
سكت فبدأت تطوف في الغرفة كفراشة وهي تغني وترقص مع السلة؛
" أنا قلبي دليلي قالي هتحبي، دايما يحكيلي وبصدق قلبي"
ضحكت و قاطعتها؛
-نسرين، اسمها نسرين.
اقتربت مني و همست لي كأنها تخبرني سر لا أعرفه؛
-نسرين ! و كيف تبدو تلك الساحرة ؟ سمراء أم بيضاء طويلة أم قصيرة؟ ما لون شعرها؟
لم أتوقف عن الضحك و أنا اسألها لما تبدو كالمحقق الذي يحاول الكشف عن مجرم.
-حين يتعلق الأمر بقلبك ،فنسرين متهمة حتى تثبت براءتها.
-حنطية اللون، شعرها بني قصير يغطي أذنيها، أقصر مني بقليل ولها أجمل ابتسامة رأتها عيني، قد تبدو عادية خاصة لرجل عاش عمره ينظر إليكِ، لكني أراها جميلة يا أمي.
-لقد تحول الصبي الصغير الي رجل حينما نبض قلبه بالحب، هل اتفقتم علي شئ؟
ابتسمت لها وأنا أري فرحة غريبة في عينيها

-مازلت يا أمي في العام الأخير من الجامعة، لا يمكنني أخذ أي خطوة بعد.
حكت ذقنها كمن يفك شفرة لغز؛
-لا تقلق يا عزيزي، أنا معك و سأقف بجوارك حتي تنشأ ذلك المشروع الذي طالما حلمت به ونخطف تلك الفتاة من بيت أهلها.
ضحكت من جديد ثم توقفت فجأة وأنا أذكر أبي؛
-لكن أبي يا أمي يصر علي زواجي من مريم، يقول أنه قطع عهد مع عمي، كما أنه لن يدفع قرش واحد في ذلك المشروع فهو يرى أن العمل كموظف براتب ثابت آأمن وسيلة للعيش.
أمسكت بيدي وربت عليها؛
-لا تقلق، يقول عيد ما يشاء، فهو يظن بأنه قادر علي تحريك الكون من مقعده، لكن الكون ليس ملكه ونحن لسنا أبطال في مسرحيته.

كانت المرة الأولي التي تشكو فيها من أبي هكذا وفي صوتها مرارة لم أسمعها من قبل.

والأخيرة.

~~~~~~~~~~~~~~

لم أنم تلك الليلة حتي طلع الصباح ، أعددت قهوتي ووقفت طويلا اتأمل عشرات الأشخاص المارون تحت شرفتي، الكل يتحرك في حركة آليه غريبة، تري ما الذي يدفع كل منهم لأتجاه ما؟ شعرت بغربة تحيط بي كذرات الهواء، غربة شارع عشت فيه ولم أشعر بالأنتماء، غربة أناس يحملون اسمي في أوراق رسمية، ثم نظرت إلي يدي الممسكة بفنجان القهوة فشعرت بالغربة الأصعب؛ غربة الذات!

ذلك الوعاء الذي يحملني معه قد ينتمي إلي شخص أخر، شخص قد مات بالفعل! كيف مسحت تلك السنوات من ذاكرتي؟ كيف تحولت إلي شخص أخر أتحرك بداخله وأتنفس من خلاله دون أن أعرفه جيدا؟

لمحت سيارتي في طرف الشارع كقطعة أثرية مهملة بجوار الرصيف، ثم لمحت أحد يقترب منها فدققت النظر وما شككت لحظة أن يفكر أحد بسرقتها لكنه اقترب أكثر إلي الدرجة التي رأيته ممسك بمقبض الباب الأمامي يحاول أن يفتحها. لم أستطع أن أري وجهه لكن الباب قد فتح بسهولة وقبل أن يركب أدار رأسه ينظر إلي فالتقت وجوهنا من بعيد وكأني من جديد أمام المرآة ، نسخة أخري مني ! رفع يده
~~~~~~~~~~~~~~

ملوحا قبل أن يركب ثم سمعت حركة الموتور يدور ، أسقطت فنجان القهوة وركضت سريعا إلي الأسفل تدور رأسي مع دوران السلالم حتي وصلت إلي مدخل البناية، وجدت السيارة علي الجهة الأخري لم تتحرك! لا شئ هناك ! لا أحد!

ثم رن هاتفي فأخرجته من جيب البيجاما، رأيت رقم غريب ففتحت الخط ووضعته علي أذني دون أن أتكلم.

سمعت صوت نسائي خافت فسألت في فزع؛ من معي؟

-أنا نسرين، أريد أن أراك.

حددنا الموعد والمكان وأغلقت الخط وأنا في حالة من الصدمة لا أستطيع أن أفرق في ذلك النهار بين الواقع و الخيال، نظرت من جديد إلي الهاتف فوجدت الساعة قد تعدت الثامنة.

يا ألهي لقد تأخرت!

~~~~~~~~~~~~~~~~
~~~~~~~~~~~~~~~~

ملامح جميلة التي ورثتها عنها كانت كافية لأكون ذلك الفتى الوسيم الذي تتمني البنات مصاحبته أثناء الجامعة ، بالإضافة إلي روحها المرحة التي كانت تكره الحزن وتقبل جبيني حين تراني عابسا وهي تمزح:
-من شأن هذه القبلة أن تمحو تلك الخطوط العابسة تماما كما تفعل أبر التجميل، الفرق أنها لا تؤلم.

فلا حزن يدوم مع جميلة، حتى في تلك المشاحنات مع أبي من أجلي، كنت أعلم أنها تمنحه نفس القبلة السحرية بعدها حتى ترخي جبينه المقطب دائما، لكن أثرها مع أبي كان أقصر بكثير من أثرها علي.

بقي قلبي مغلقًا حتى أني ظننت أني لن أقع في الحب أبدا، تجمعني صداقات مع بنات في الجامعة لكني أهرب كلما شعرت بأحداهن تتودد لتحويل تلك الصداقة إلى علاقة، ولا أعرف إن كان السبب هو أمي والتي كنت أراها دوما ملكة والنساء حولها وصيفات يتمنين ذلك البريق في عينيها، يحسدهن علي الدفء المنبعث من قلبها والكافي كي يحل السلام الأرض وتنتهي الحروب، يتساءلن عن طولها الفارع وشعرها الأسود الذي يعكس بياض جلدها كشمس وليل في

لوحة واحدة. وعلي عكس الزمن الذي يغير كل شئ بقيت جميلة كما هي أو هكذا رأيتها.

حين التقيت بنسرين في كافيتريا الجامعة لأول مرة ، كنا في عامنا الأخير ولغرابة الأمر لم أعرف أنها كانت هنا طوال تلك السنوات، ففي دفعة يزيد عددها عن عشرة الاف طالب. كانت نسرين بهدوئها كلحن خافت وسط سيمفونية صاخبة.

جذبني إليها خجلها وهي تطلب من البائع أن يغير كوب قهوتها بواحد أخر كما طلبته بدون سكر، رد البائع عليها بأسلوب فظ:
-لا يا آنسة أنا أذكر أنكِ طلبتي سكر.
سكتت نسرين وكادت أن تنسحب حتي أوقفتها وأخذت كوب القهوة من يدها ووضعته أمامه حتى انسكب قليلا منها وكأنها تفور في غضب.
-لقد طلبت منك الفتاة أن تغير قهوتها .فلتفعل ذلك!
كان أسلوبي كاف ليعرف الرجل أنه سيدخل في شجار إن لم يفعل، تناولها في صمت وذهب لتجهيز كوب جديد.
-أشكرك. انا نسرين.
مدت يدها وهي تبتسم.

" لكل حياة لقطة حب واحدة صادقة"*
تلك اللحظة التي تدرك فيها أنك وقعت في الحب وأن تلك اللحظة دون عن غيرها ستبقي في ذاكرتك للأبد. قد تكون لحظة اللقاء أو لحظة الوداع فالبعض يدرك الجمال قبل أن يلمسه والبعض يدركه حين يفقده.
مددت يدي وأنا أخبرها:
-لا بأس، فأنا مثلك لا أتخيل مذاق السكر في القهوة.أنا...
قاطعتني
-طارق.

عاد إليها الخجل من جديد فأخبرتني إنها في نفس دفعتي لتبرر معرفتها بأسمي، انتهي البائع من القهوة لكن حديثنا لم ينتهي بعدها حتي صار كصوت فيروز يملأ الصباح بالأمل و يكتمل به مذاق القهوة.

*ميتش ألبوم

~~~~~~~~~~~~~~~

قلوبنا خضراء غضة
نسقيها الشعور فتزدهر
و نغرقها فتتعفن الجذور !
~~~~~~~~~~~~~~~

قد تتحول ذكري البعض الي خلية سرطانية تبقي سنوات في جسدك قبل أن تدرك أثرها، ولا يمكنك لوم جزء من جسدك أنه قد تخلي عنك أو تبحث في تلافيف عقلك من آن لأخر لتكتشف أي ذكري قد تمردت و يجب استئصالها قبل أن تصل ثورتها إلي الكل فتوشي بعقلك كاملا.

بدت كلوحة مرسومة بريشة فنان جريح وهي تنظر إلي مياه النيل الساكنة ثم تعيد النظر إلي ساعتها التي تعدت الخامسة، هيأ لي أنها هناك منذ عشر سنوات تنتظر ، لم يتغير شئ فيها، لم تزل شابة صغيرة في ثوب امرأة باهظ الثمن.

لا أدري لماذا بقيت بعيدا أخشي أن أقترب، أشعر بأني لست أنا الشخص المنتظر، خانتنى ذاكرتي وأنا أحاول أن أعود إلي سنوات الجامعة، إلي لقاءات مشابهة، إلي قبلتنا الأولي، كنت كمن ينبش في التراب ليحي جثة تحولت إلي رفات.

رحلت وقبل أن أصل إلي البوابة سمعت صوت من خلفي؛
-مازلت تجيد الهروب.
نظرت إليها طويلا قبل أن أجب؛
-وأنتِ مازلتِ جميلة.

عدت معها إلي طاولتها في صمت، في طريق لا يتعدي الثلاثة أمتار عصفت برأسي مئات الأسئلة لكني أبقيت عيني علي خطواتها الأشبه بقطة تخطو بدلال وحذر.

عادت تنظر من جديد إلي النيل بعينين أشد حزنا، فتخيلت تلك اللوحة إن رسمت الأن فربما ليضاف وجهي كشبح غير مرئي يراقبها في صمت.

جاء صوت شابة مسموع من الطاولة المجاورة وهي تتصفح هاتفها لتخبر أهلها بشكل مسرحي وكأنها تريد أن يسمعها الجميع؛
-يتنبأ العلماء بنهاية العالم هذا العام.

ضحك أبيها حتي ظهرت أسنانه من تحت شاربه السميك وهو يمضغ الطعام ثم قالت أمها في برود؛
-يقولون ذلك كل عام ولا شئ يتغير.

-هل تظن ذلك؟
خرجت أخيرا من صمتها وسألتني وأنا مازلت أحدق في الرجل.

-أظن ماذا؟ نهاية العالم ؟
أومأت برأسها وابتسمت ابتسامة رقيقة وكأنها تحاول أن تخفف من وطأة الخبر.
-لا أظن العالم سينتهي أبدا، أظنه سيدور الي ما لا نهاية.
-لكن الناس يموتون كل يوم في حروب و كوارث طبيعية و أمراض لا حصر لها.
-أنا أتحدث عن الكل ، لا البعض، نحن كأناس لا نمثل في هذا العالم أكثر من ذرات الهواء نتبدل في كل ثانية، هل تظنين أن هذا العالم الذي نراه هو العالم الوحيد؟
سرحت قليلا وهي تنظر إلي في شك؛
-لا أفهمك يا طارق! لقد صرت غريبا!
-كيف؟ سألتها بفضول شديد كي أعرف كيف تراني الأن.

-عندما رأيتك ذلك اليوم في الشركة كنت مختلف عن تلك الصورة التي احتفظت بها لك في ذاكرتي ولو أنك ما نطقت اسمي لربما لم أكن تأكدت أنه أنت! كل شئ فيك قد تغير صارت ملامحك أكثر حدة و عينيك دائمة الشرود حتي أنك لم تبتسم ولا مرة حتي الأن! حديثك عن العالم أخافني، لم أعرفك بهذا اليأس أبدا.

-لهذا السبب قد رحلت منذ قليل،لم أحب أن أشوه تلك الصورة في ذهنك.
-أسفة حقا، لم أعني ذلك، كنت أعني فقط أنك قد تغيرت وأظنه أمر طبيعي لا شك من أني نفسي تغيرت أيضا.
-التغيير ليس مشكلة يا نسرين، نحن نتغير وهذا أمر طبيعي كما ذكرتِ مادمنا مازلنا ندرك حدود هويتنا، لكن الأسوء أن يبدلك ذلك التغيير فتجدي نفسك تعيشين حياة شخص أخر، شخص لا تعرفين عنه شئ.

عاد الصمت من جديد وقد شعرت بعينيها تبحث عني ، تشفق على ،تحاول أن تلملمني ، تشابكت أصابع يديها القصيرة في بعضها وكأنها تحاول أن تشعر نفسها بالأمان، رأيت خاتم الزواج الألماس يلمع في يديها ينبهني إلي الواقع حتى لا أغرق في خيال عينيها فسألتها عن زواجها وعن اختياره لأرض الأحلام.

أخذت تنهيدة عميقة رأيت فيها نهديها يرتفع كموجة هائجة؛
-غريبة تلك الحياة، تطيح بأحلام سنوات في لمح البصر، لم أتخيل يوم زوج سواك لكني ها هنا الأن أحدثك عن زوجي!
تزوجت يحيي بعد رحيلك بعامين ، كنت فيهما قد فقدت الشعور بكل شئ ، بعد أصرار من أهلي ولطفه الزائد معي

وافقت رغم فارق العمر بيننا، كنت أتعجب لماذا لم يتزوج حتى عمر الأربعين و كيف لم يكن له علاقات قبل زواجنا لكنه كان يتحجج بعمله و انشغالاته الدائمة.

سكتت وسرحت قليلا ، كنت أعلم أن هنالك شئ تتردد أن تخبرني به، فعدت اسألها من جديد عن اختياره لشركتنا حتى أرفع عنها الحرج.

-أعتاد يحيي علي أخذ قرارته دون أن يعود إلي، لكن ما فهمته أن الأرض ليست جاهزة بعد وهو يريد أن يصنع مكان مميز للسكن و جزء لإجتماعته خاصة بعد نية ترشحه للمجلس.

فكرت في كلماتها لعلي أصل عن ما يبحث عنه تلك الفئة من الناس، إذن الأمر أكثر من مجرد عزلة رددت في سري.

و مضي كل منا وكأننا لم نلتقي ، لكني كنت أعلم في تلك اللحظة التي لمست يديها مودعا بأن ذلك اللقاء سيكون الذكري المتمردة التي ستوشك بعقلي.

~~~~~~~~~~~
~~~~~~~~~~~

نزل الليل كستائر مظلمة غطت الطرقات، صرت أقود في دوائر لا تنتهي، أبحث عن مخرج للعودة، لا يوجد إشارة في الهاتف، لا صوت يخرج من الراديو، لا أثر لحياة من حولي.

أوقفت السيارة عند المنعطف كنت قد تعبت من الدوران، ظهر مؤشر الوقود بالأحمر فأدركت أني سأبقى هنا طويلاً.

نزلت من السيارة أبحث عن أي شئ حولي ، أي شيء بإمكانه أن يعيدني إلي الحياة، ظهر ضوء مهتز للوحة إعلانية على بعد أمتار، حاولت رؤيتها لكن اهتزاز الضوء كان يعبث بعيني في الظلام.

لمحت صورتي بصعوبة في الثانية قبل أن تنطفئ فأبقيت نظري طويلا لعلي أرى المكتوب فوقها، بخط رديء مائل قرأت كلمة في كل وميض؛

"حياة..
رجل..
أخر.."

انتابني شعور شديد بالغضب ، ضربت باب السيارة بقدمي بأقصي قوتي والغريب في الأمر أني لم أشعر بألم، ففكرت أني في حلم سخيف ينتزع قوتي، صرخت بصوت عالي خرج من أحشائي؛

-أيها العابث أرني وجهك.

عاد صدي الصوت أعلى كانفجار مدوي فوضعت يدي علي أذني وسقطت على الأرض، جلست مستندا علي عجلة سيارتي واخفيت رأسي بين يدي في يأس.

بعد قليل أضاءت اللوحة من جديد فقشعت الظلام عن الفراغ حولها، لكنها لم تنطفئ تلك المرة، بقيت أنظر إلي صورتي ،كانت كصورة المرآة أقف فيها مبتسما، أضع يدي في جيوب بنطالي وأرتدي التي شيرت البولو الأزرق.

شعرت برأسي كقطعة ثلج وضعت فوق صفيح ساخن، و صورة نسرين كمسدس صوب فوهته مباشرة نحو عيني.

ربما كان الليل الأطول الذي مر علي وأنا أراقب عجزي في صمت.

امتدت خيوط الفجر في السماء كأيادي أبحرت في عمق البحر لإنقاذ غريق، تلاها شروق شمس لم أنتظرها في يوم مثل اليوم.

عدت إلي داخل سيارتي وقد أختفي مؤشر الوقود، أدرت المحرك وتحركت.

عاد إرسال الراديو وظهر معه صوت المذيع؛
" صباح الخير من بلدنا الجميلة، ابتسم فأنت حي"

~~~~~~~~~~~

لقاء نسرين كان أشبه بعاصفة اقتلعت جذور أعوام من الاستسلام ، فكرت في الطريقة التي يبعث بها الكون إشارته صوب أعيننا دون أن نراها، و الحكمة من إيقاظ موتي تراجعت ذكراهم إلي ركن مهجور داخل عقلك،رسمت خطوط متشابكة فوق تلك الورقة البيضاء حتي نفذ الحبر من قلمي، وعلي الرغم من أنه أنا من رسمها الا أني لم أستطع مطلقا أن أعرف إين بداية الخط وإين نهايته.
~~~~~~~~~~~

طرقت في ذهني فكرة جديدة ألقتها إلي نسرين كطعم لسمكة جائعة منذ أعوام، اتجهت نحو غرفة مديري في حماس جنوني ونفذت عبر الباب الزجاجي ربما دون أن افتحه.

-إنه التخصيص !
قلت بصوت جهوري فنظر مديري إلي في تعجب وحرك يديه مستفهما.

-قيل عن الجنة في الدين أن بها ما لا أذن سمعت ولا عين رأت ! لكن من منا لم يرسم ألف صورة لها؟ لكل منا جنته التي صممها كما يحب ، علي الرغم من أن لا أحد منا يسعى إليها حقا! الكل يسعي إلي جنة الأرض المزيفة.

-طارق! هل تحتاج إلى إجازة؟
سألني مديري وهو ينظر إلي بتعاطف لشخص فقد عقله.

-دعني أوضح رجاءً ، ترى ما الذي يدفع شخص مثل يحيي حبيب للتعاقد مع شركتنا-لا أقصد الأهانة- لكن الأمر ببساطة هو أننا لا نملك هوية حقيقة لشكل أرض الأحلام، فرأها يحيي فرصة كي يضع هويته الخاصة ويصمم جنته وفقا

لرؤيته لها! خلاصة القول أن رسالتنا الجديدة ستكمن في هوية عملائنا
" اصنع جنتك كما حلمت بها"

بقي مديري يفكر قليلا ثم قال مبتسما ؛
-أراها فكرة جيدة ، لكن حاول أن تبتعد عن أي أمور دينية، لا نريد قضايا، تفهمني؟

هززت رأسي وعدت من جديد إلي ورقتي البيضاء.

تلقيت رسالة منها وقد كنت أخشاها بقدر انتظارها؛
-هل تظن أن من العدل التحدث عن عشر سنوات في ساعة ؟

فهمت أنها ترغب في لقاء أخر، لكن خوف ما دفعني للرد سريعا؛
-في حقيقة الأمر، لا أحب التحدث عن الماضي.
مضت خمس دقائق ممسك بهاتفي لا أعرف أي رد أنتظر.
-دعنا إذن نتحدث عن الحاضر (ثم وجه يبتسم).
-أي حاضر تقصدين؟ مريم أم يحيي؟

-لا شك أنك تستخدم إحراج الناس كوسيلة دفاعية حتى لا تنجرح!
-لا أعرف إن كان من الحكمة صنع جرح فوق جرح مندمل؟
مضت خمس دقائق أخرى....
-اسمع يا طارق! يحيي مسافر في نهاية الأسبوع ثلاثة ليالي، افتقد كثيرا حديثنا، هنالك الكثير أرغب في حكيه إليك ، فكر في الأمر، هذا عنوان بيتي سأنتظرك حتى وإن لم تأت.

أرسلت موقع منزلها ثم ظهرت "غير متاح"

~~~~~~~~~~~~

تزهر شجرة الياسمين وتسقط الزهور الصغيرة سريعا قبل حتي أن تذبل لتزهر من جديد، لكن ياسمينتي بقيت بيضاء مشرقة لأعوام متشبثة بأغصان قوية أبت سقوطها.

للياسمين سحر لا أظن أحد يقاومه، عطر بالرغم من نعومته يفوق أثره النرجس والفل والريحان، يبقى في ذاكرتك طويلا ، يهدهدك للنوم حين يمسك الأرق بأجفانك.
~~~~~~~~~~~~

حين يأتي الخريف تتمنى لو تتحول عينيك إلي شمس لتبقيهما عليها وتلف ذراعيك القصيرين حولها لعلك تبعث فيها دفء صيف منتهي.

لكن الخريف أقوي والياسمين لا يمتلك قوة خارقة، فلم يعد يزهر ، ذبلت أوراقه الخضراء وتهاوت واحدة تلو الأخري يوم بعد يوم.

لم يصمد الياسمين حتي الشتاء ولم يأت الربيع أبدا.

~~~~~~~~~~~~~~

بإمكان الجميع ممارسة الكذب مثل أي عادة أخري لا تتطلب مجهود، حتى ذلك الأحمق الذي يخبرك أنه لا يستطيع الكذب، هو فقط مدعي بإمكانه أن يكذب دون طرفة عين لكنه يحارب رغبته كما نحارب أهواءنا كبشر طوال الوقت.

هكذا كنت أطمئن نفسي في طريقي إلي نسرين حتي أتغلب على شعور التوتر الذي وصل إلي قدمي وجعل القيادة أمر صعب، كنت أسمع ضربات قلبي فأرفع صوت الراديو كي
~~~~~~~~~~~~~~

أتجاهلها وأفكر في تلك المداخلات الهاتفية مع المذيع المتحمس الذي يضحك كل خمس ثواني حتى فكرت إن كان ذلك مرض ما! و تخيلت ذلك الرجل يبكي ليلا لأن عليه فعل نفس الشئ في كل صباح حتى لو فقد صوته.

-لقد اكتشفت خيانة زوجي لي حين فتشت هاتفه ووجدت رسائلها الملتهبة عن لقاؤهم الأخير، أي امرأة تلك التي تخدر ضميرها في حضن رجل لدقائق تعرف جيدا أنه ينام في حضن امرأة أخري كل ليلة.

لم يكن البرنامج يتحدث عن الخيانة! لكن هذا الاتصال قد شل تفكيري حتي أني سمعت صوت المتصلة وكأنها مريم! يلقي الكون إلينا بإشارات يختار توقيتها و طريقة عرضها، ولكننا نصّر علي أن نظل في ظلامنا المضاء بالسراب.

انتظرت رد المذيع عليها وتفاجأت حين أكمل ضحكه المستفز وكأنها أخبرته مزحة ما؛
-النساء قادرات على كشف الخيانة أفضل من أي جهاز مخابرات.
ظل يضحك حتى كاد يختنق، ازددت توترا فأغلقت الراديو وتخيلت أن أحد ما قد طلب له الإسعاف!

وصلت الي الموقع في احدى شوارع حي الزمالك، وجدت بناية بيضاء علي يميني يظلل بوابتها الأشجار ، وعلى الصف المقابل مكان فارغ يكفي سيارتي دون مجهود كحلم ينتظره اي مواطن، ترددت حين فكرت في علامات الأستفهام التي ستحيط بالسيارة إن تركتها هنا لثلاثة أيام، ستبدو مثل صندوق قمامة مفتوح وسط الأشجار ،يفسد على السكان مشهد الشارع الهادئ برائحة الفقر العفنة المنبعثة منه.

تحركت في الشوارع المجاورة أبحث عن مكان آخر أكثر أمن، المزيد من الأشجار والبنايات العالية والسيارات المتكدسة علي الصفين، أحارب صراع يدور في خلفية ذهني بين الرغبة في أن أعود إلي المنزل و أغرق في الواقع من جديد ، وبين رغبة ملحة أن أبحث عن ذاتي القديمة و هويتي المفقودة عند نسرين.

وجدت أخيرا مكان مناسب في شارع جانبي أظنه قد ترك فارغا بسبب ذلك المطب الصناعي الذي تآكل نصفه.

جررت حقيبة سفر صغيرة أعددتها لي مريم حين أخبرتها برحلتي المفاجئة إلي الإسكندرية لإنهاء عقود مع عملاء مهمين، كذبة مألوفة لم تحتاج الكثير من التفكير، أصدرت العجلات صرير مزعج شعرت معه بالغباء ، حملت الحقيبة وأسرعت خطواتي حتي لا ألفت انتباه أحد.

كانت الساعة مازالت التاسعة صباحا، لم اجد حارس أسفل البناية فأسرعت متخذا السلالم خشية أن ألتقي بأحد من الجيران في المصعد.

حاولت تنظيم أنفاسي قبل أن أطرق الباب لكنها فتحته بسرعة، ابتسمت ابتسامة واسعة ثم وقفت خلفه لتفسح لي المجال للدخول.

لا أعرف ماذا أثار انتباهي أكثر، نسرين في بنطلون أبيض رياضي ، خصر نحيل و ردفين مدورين كموجة صغيرة تحررت من سهل بطنها، نهدين مشدودين كثمار ناضجة، غاضبة من قيدهما داخل صدرية بلون زهري لمحت طرفها المكشوف من بلوزتها البيضاء الملونة بورود صغيرة متناثرة.

شقة طغى عليها اللون الذهبي في كل أثاثها كإعلان فج عن الثراء، ثريا ضخمة من الكريستال ولوحات من قرون ماضية في شكل مستحدث تبدو صنعت خصيصا من أجله.

لمحت نسرين شرودي فلمعت عيناها وقالت بلطف؛
-كنت أخشى أن لا تأتي.

أمسكت بيدي لترشدني إلى غرفة جانبية لأضع حقيبتي حتى تجهز الفطور.

غرفة صغيرة بها سرير واحد وخزانة ومكتب، كلهم باللون الوردي، تبدو كغرفة أطفال لم تكتمل. أغلقت الستائر وغيرت ملابسي متجاهلا النظر إلى المرأة الطويلة بجوار السرير والتي لمحت فيها نفسي عدة مرات أثناء حركتي كشخص يتبعني في صمت.

~~~~~~~~~~~~~~

في الشرفة المطلة علي النيل في الطابق العاشر، جهزت نسرين فطور من الكرواسون و زبدة وبعض أنواع الجبن التي لم أفرق بينها وقهوة، كان من السهل أن أعرف أنها لم تدخل المطبخ من قبل و أن هناك خادمة في المنزل لا أعرف
~~~~~~~~~~~~~~

إين هي، من طريقة وضع الطعام العشوائيه علي الطاولة و من طعم القهوة الذي أفسده السكر.

تأملت المشهد أمامي محاولا أخفاء التوتر ، سألتها عن ما الذي يجعل أحد يترك منظر كهذا ليسكن في صحراء لم تعمر بعد!

-ليس كل رؤية عين بالضرورة رؤية قلب، لقد أعتدت ذلك المشهد حتي صار كأحد اللوحات بلا روح.

سكتت قليلا ثم أكملت بصوت أشد دفئا؛

-لكن اليوم أشعر بأن الحياة قد عادت إليه.

ابتسمت وأنا أنظر إلي عينيها طويلا، لم أشعر بغربة رغم أن كل ما حولي أراه للمرة الأولي، حتي هي !

لم يكن لقاء في كافتيريا الجامعة محاط بالصخب ،يتخلله المزحات و ضحك لا ينقطع، كان لقاء يسوده الحزن ، رغبة الإختفاء ، سرقة مثل كل السرقات مبررة بشدة الاحتياج، احتياج شخص لا تخشي التعري أمامه، تعلم أن ندوبك لن تثير اشمئزازه وإن كنت شظايا من زجاج متحطم فأنها ستبقي تلملمك حتي تنجرح و تنزف.

تحدثنا كثيرا عن الحياة، عن كيف مضت عشر سنوات في لمح البصر، عن كيف تحولت الأنثي الصغيرة إلي تلك المرأة اليافعة، ثم تحدثنا عن الأطفال فأخبرتني بصوت مختنق بأن القدر لم يشاء أن تكون أم لأن يحيي لا ينجب أو لا يريد أن ينجب! لم أحاول أن أسأل أكثر بعد ما رأيت الدمع يترقرق في عينيها.

حاولت التماسك فنهضت لترفع الصحون و هي تسألني أن كنت أرغب في شاي، فعرضت المساعدة و تحركت معها إلي المطبخ.

كنت أبحث عن مكان الشاي حين شعرت بيديها علي ظهري، لفت ذراعيها حول خصري وهي تقبل عنقي ،كنت أسمع نحيبها فالتفت إليها وعانقتها بقوة، شعرت بكل جزء من جسدها كفيضان يندفع نحو جسدي، أمسكت بشعرها برفق واقتربت من وجهها أقبلها، تبخرت علي وجنتيها الملساء كقطرة الدمع التي سبقتني، قبلتها في شفتاها فشعرت بأنفاسها و مذاق لسانها كحمم بركانية ألقيت في جسدي، غرقت فيها كشلال من الخمر ، تحرك من فمي إلي أخمص قدمي، فسكرت وترنحت بين ذراعيها تراقصني كانت أم

تحاول أسنادي، لا أعلم! لكنه لحن رائع الذي حفر في أذني، حين همست لي بلهيب أنفاسها "أحبك"

~~~~~~~~~~

رأيت حياتي أمام عيني ببراءة طفل يحلم في ليلة عيد، تتمدد بجواري ونضئ ذلك المصباح الذي أهدته لي وقت ما كنت أخشي الظلام و أتسلل إلي غرفتها باكيا لأنام بين ذراعيها، ينهرني أبي و يطردني فتأتي إلي بعدها بقليل، تمسك بيدي و تهمس لي؛

-لا تخف، الأشباح يكرهون الظلام أيضا.

فنضحك سويا و أغفو علي قبلتها لجبيني

يدور المصباح، فتدور السماء في سقف الغرفة ، نجوم و سحاب و قمور تطوف فوقنا، تلتصق رؤوسنا كصديقين يكتشفان العالم، أتشمم رائحة اللوز في شعرها فأري الحياة ممتدة أمامي كغابات مشمسة بلا نهاية، أتشوق لغدي وأرسم ملامحه معها، أحدثها عن نسرين وعن بيتنا الصغير، أعدها بأن أول طفلة لي ستكون علي اسمها، نفكر في شكل مكتبي الصغير بعد التخرج و عن السكرتيرة الحسناء التي ستثير
~~~~~~~~~~

غيرة نسرين، فأفكر في أستبدالها برجل، تقطب جبينها وتقول؛
-بالطبع لا! السكرتيرة الحسناء جزء مهم في نجاح أي رجل، ولا أحد أبدا يعرف السبب!
نضحك من جديد ونحلم من جديد، بألوان الحيطان ، بشكل الأثاث، نتأمل الحياة بعد عشرة أعوام ثم بعد مائة عام!

أما فاتن كانت تضع أسوار حول أحلامها، تسخر من أمي إن حاولت الأقتراب منها، كنت أري غيرة في عينيها ، غضب لا ينطفء في كل زيارة لأحد من صديقاتها حين يرون أمي فيرددن:
-هذه أمك! أنها جميلة جدا، خسارة أنكِ لا تشبهيها.
يزداد غضبها إن حاولت أمي التدخل في ملابسها الضيقة أو مساحيق التجميل التي تبالغ في استخدامها فتبدو مثل مهرج بأرداف سمينة وصدر منتفخ، تنهر أمي و تخبرها أنها جاهلة في الموضة وأنها مازلت تسمع ليلي مراد و تعيش في زمن لا وجود له.

بعد التخرج كشفت عن أكبر أحلامها والتي ساعدها أبي لتحقيقه عن طريق أحد معارفه الذي سهل عليها أمر الهجرة.

رأيت الدمع يلمع في عيني أمي يأبي التحرر، وحين سألتها قالت بحزن مكتوم:
-دعها تعيش في بلاد يكسوها الثلج، فقد أختارت ما يليق بها.

~~~~~~~~~~~

يقال أن الأمومة غريزة والأبوة سلوك مكتسب! لكن حتى ذلك السلوك المكتسب يبقى كعلامة استفهام تتبع خبراتنا السابقة، فأظن أحيانا أني قد تحولت دون أن أشعر لأب سلبي ، لا أتدخل في قرارات مراد، أحاول أن لا أفرض سيطرتي عليه حتي فقدتها تماما كما تدعي مريم دائما.

ولا شك أن ذلك السلوك المكتسب خلفه خوف قوي أن لا أكون نسخة أخري من أبي، لا مانع أن أكون أب سئ أو لا أكون أب من الأساس، لكن ليس أبي!

فكرت في ذلك الخوف الذي قد دفع أبي طوال تلك السنوات لتقويمي بشكل واحد لا يقبل الجدل ، حتى أني كنت أتخيل جدتي -رحمها الله- والتي لم أراها في حياتي وهي تضفر شعر أبي أو تطلق عليه أسم مستعار لأنثي أو ربما رآه جدي يوما يتزين بأحمر شفاه فضربه ضربة أحدثت ذلك الأثر!
~~~~~~~~~~~

يصرخ في أمي غاضبا كل حين يلومها بأنها لم تنجب ولد أخر حتى أدخل الجيش، يشكك في رجولتي و يري الرجولة من منظار واحد الا وهو الألم؛ فالرجال لا تبكي، الرجال لا تشكو ، الرجال لا تحلم، الرجال لا تنبض قلوبهم، الرجال يجب أن تعاني ليستقيم عمودهم الفقري ويقوي، الرجال لا يجب أن تلتصق هكذا بأمهاتهم، الرجال يجب أن تعمل في الحكومة طوال حياتها- مثله- وتتزوج من الأنسب وليس الأحب، الرجال يجب أن تضحي ، الرجال لا تلبس سوى الالوان الداكنة..تبا يا أبي لذلك المسخ الذي صنعته المسمى رجل!

قالت لي نسرين يوما أنه ربما يغار من حب جميلة لي، لكني ما أظن أمي كانت في حياته أكثر من صورة لرجل يحاول أن يثبت للعالم بأنه ليس بذلك القبح، يعالج ضعف روحه الفقيرة التي تفتقد الشعور بالحياة حين يمسك بأيديها وسط العامة فيري نظرات الرجال وهي تحسده تشتهيها فيزداد غرورا زائفا برجولته.

أعود لأسأل أمي للمرة الألف؛
-لماذا تزوجتي أبي؟
فتضحك وتسألني:

-أبيك ليس بذلك السوء الذي تراه ،فهو رجل مخلص يعمل طوال يومه ويتعب من أجلنا.
كانت تلك الإجابة كافية لأسكاتي وأنا طفل صغير دائم الغضب منه، لكنني عندما كبرت أدركت هي وحدها أن إجابتها لم تعد كافية فتغير ردها إلي؛
-إنه القدر يا بني.
-هل تحبيه؟
-للحب أشكال ودرجات لا حصر لها، و ترجمة شعورك للحب أمر سهل، لكن معرفة ماهيته من أصعب ما يكون.

~~~~~~~~~~~~~~~~~~~

في غرفة المعيشة البيضاء بدأ التوتر ينسحب تدريجيا بعيدا عن تلك الظلال الذهبية التي غطت الخارج كشمس واضحة أرهقت عيني.

في تلك الغرفة المنسية بساطة أراحت صدري ، بداية من الأريكة المخملية الزرقاء و الإضاءة الخافتة في أركان السقف إلي لوحة غروب الشمس البدائية المرسومة بأنامل طفل.
~~~~~~~~~~~~~~~~~~~

شاشة تلفاز كبيرة معلقة على الجدار ونافذة تطل علي شارع جانبي هادئ، أسدلت فوقها ستائر بيضاء ناعمة لا تحتوي علي أي زخارف.

تنقلت بين محطات التلفاز بسرعة لم تمنحني أن أدرك ما بها، كنت أحاول أن أشغل نفسي عن ذلك الصوت بداخلي الذي يأمرني بالرحيل الأن.

كنت أسمع أنفاسها متوترة مثلي ،أشعر بجسدها بجواري وكأنه عصفور يرتجف، كنا نحن نفس الشابين في ثوب حزين ألقته علينا الأيام فغطي أجسادنا بجلد سميك لا ننتمي له.

-لقد بحثت كثيرا عن سؤالك لي في لقائنا الأخير.
جاء صوتها خافت كحفيف أشجار يكسوها نسيم هادئ.
-أي سؤال؟
-العوالم الأخرى!

ابتسمت وأنا أنظر إلي عينيها ، فيهما ضعف لطالما أحببته، نداء بالاحتياج يثير رجولتي ، حائرة عميقة كما أعتدتها، لكن لمعة الفرح قد انطفأت فيهما فزادت من عطشها.

-يقال أن هناك الكثير من العوالم التي لا نعرف عنها شئ، أناس يشبهوننا تماما، يحملون نفس أسماؤنا ربما، يعيشون بعدنا أو عاشوا قبلنا، لا أدري ، لا وجود للزمن هنا.

-وهل يعيشون نفس حياتنا؟
سألتها ساخرا
-لا أعلم! ربما.
-إن كان كذلك فإنه لأمر محزن أن تموت أحلامنا آلاف المرات.

مدت يدها وأمسكت بكفي؛
-لم أحلم بسواك.
شعرت بدبيب خفي في قلبي، شئ من الحياة يعود إليه، لمست شعرها فبعث في ذاكرتي شعور كنت أظنه قد مات. لكن كل شئ من حولي كان يدفعني بعيدا، كنت أشم رائحته في كل شئ ، ضاق الحصار من حولي، يحيي يشهر خنجر الواقع في ظهري وفي عينيها تتوه نفسي القديمة فلا تجد مخرج.

صراع لا ينتهي، قوانين لا أدري من وضعها لكني أصبحت مكبل بها منذ أعوام ، أعتدت عليها حتي أني لم أعد أراها . تماما كما يعتاد السجين قضبان زنزانته.

اقتربت مني محاولة تقبيلي من جديد، لكني أوقفتها وقلت بصوت محموم ككابوس غشي رؤيتي فجأة؛

-يحيي يا نسرين.

ابتعدت و عيناها ممتلئة بالدموع ؛

-أنت لا تعرف شئ.

-أخبريني إذن ، كيف يلمسك؟ كيف يداعبك؟ كيف تنامين في حضنه كل ليلة و تستيقظين على وجهه في الصباح؟

انهمرت الدموع من عينيها

-كغريبة في بلاد لا أحد يفهم لغتي، كساقطة تمنح جسدها دون لذة، كسراب يسبح في ذلك المنزل ولا أحد يراه، لقد عشت مع يحيي نصف امرأة، كان يضاجعهن أمامي ، يأتي بأحداهن إلي سريري ويأمرني أن أشاهد لتزداد شهوته، يردد بأن الرجل الذي يمنح جسده لأنثي واحدة هو رجل أحمق فقد متع الحياة، كنت أرفض، أركض لكني في النهاية كنت أبقي استمع لآهاتهن وهن ينتشين ، أري جنونه معهن كثور هائج

يحركه الغضب أكثر ما تحركه الشهوة ، أقاوم الاختناق من رائحة العرق والرخص ، ما تمنيت شئ يا طارق أكثر من أن أكون أم وما حمدت الله علي شئ أكثر من أني لم أصبح كذلك.

-لماذا رضختِ لكل ذلك الألم؟
سألتها مستنكرا
هدأت قليلا ومسحت عينيها الملطخة من سواد الكحل الذائب كفحم أحرقته الدموع.
-لماذا ؟ ولماذا تركتني؟ و لماذا تزوجت مريم؟ ولماذا تعيش حياة لم تختار شئ فيها؟ يمكنني أن أجيبك أن لم يعد لي خيار بعد موت أبي أو أن لم يعد شئ يؤذيني أكثر من رحيلك لكن الحقيقة أن لا أحد يعرف أبدا لماذا تموت الأحلام ولماذا نتحول إلي أناس هشة تسبح مع التيار لأن ما عاد لدينا طاقة لمقاومته.

في تلك اللحظة استسلمت للتيار من جديد، ذلك التيار الذي وضعني هنا دون مقاومة مني، تركت نفسي لأتوه في عينيها، رضخت لسحر فيها كنت أظنه ما عاد موجود ، عانقتها بقوة وكأني التحم بها أو أود الهروب فيها، أيقظت بداخلي ذلك الظل لنفس أحاطت بي ولم تلمسني، كنت أطوف

حولها بروح تائهة، تذوقت شفتاها ثانيا ، كان لهما نكهة تُسكر كفاكهة محرمة، شهية تزيدني شوقا، بصوتها الدافئ واندفاع يديها على جسدي كشلال ماء دفعتني نحوها، أتحسس جسدها ، أخلع عنها وعني تلك الثياب وألقي معهم بشقاء السنين.

لثمت عنقها، تنفست مسام جلدها، تحسست نهديها بكفي أعمي يتحسس النور، شعرت بحياة تولد من جديد وهي تحرك جسدها في نشوة أسفل مني كجياد يندفع نحو أفق بعيد.

تشابكت أيدينا واقتحمت حصون قلعتها كفارس هزم كل الأحزان و انتشي بقوة سلاحه، وكأن العالم قد عاد لنقطة البداية وكأننا آدم وحواء يحلقان في الجنة و كأن الأرض لم تخلق بعد!

~~~~~~~~~~~~~~~~

شعرت بقبضة يدها علي كتفي، صوتها مهزوم من الألم ،يخرج من جوفها متقطع وكأن كل حرف تنطقه يحدث جرح حتي يتمكن من الخروج؛
-طارق، خذني إلي المشفي.
~~~~~~~~~~~~~~~~

فتحت عيني لكن الظلام مازال يغشيها، أضئت المصباح بجواري ونظرت إليها في فزع، وجهها شاحب يتصبب عرق غزير وعيناها ممتلئة بالدموع تقاوم ثقل أجفانها المنتفخة حتى لا تغلقها علي مخاوف عقلها، شممت رائحة تعبر من النافذة تحيط بنا كدخان أسود، خانقة كعفن يزحف نحو الجدران ،قبضت صدري في صمت يكسره أنينها.

ركضت أغير ملابسي أتخبط في كل شئ حولي فيسقط صانعا دوي مفزع، أمسكت بأيديها المرتعشة واسندتها إلي الباب، سألتها إن كان يجب أن أوقظ أبي لكنها رفضت وقالت:

-لم يعد هنالك وقت.

لم أعرف وقت لماذا، لم أرهقها بأسئلة عن أي شئ حتي أني لم أسألها ماذا تشعر، فالألم يصرخ في كل تفاصيلها.

وقفنا قليلا ننتظر تاكسي ، كانت علي وشك السقوط وهي تخرج مفاتيح سيارة أبي من حقيبتها وتردد من جديد:

-هيا يا أبني، لم يعد هنالك وقت.

اقتربت الساعة من الثالثة صباحا، أقود بسرعة في سباق مع الوقت الذي يركض خلفنا كما قالت جميلة، رأيت الشوارع من حولي كخطوط سوداء، كنت أسمع نحيب متقطع خلف البنايات، أري الطريق الذي أمر فيه كل يوم للمرة الأولي، كيف تحول كل شئ في طرفة عين، لا أحد يعبر الطريق، لا أبواق سيارات، هجرت المدينة في تلك الليلة ولم يعد سوانا، أنا أقود و جميلة تتألم!

في غرفة الطوارئ وجوه عابسة تركض في كل اتجاه حين دخلت أمي علي كرسي متحرك و حولت الأرض إلي بحيرة من الدماء، كنت كتمثال يقف خلفها بعد أن تجمد الدم في عروقي وتحولت ذرات الهواء إلي فتات صخور تجرح صدري في كل شهيق وزفير.

اختفي وجهها وسط طاقم التمريض فازداد العالم ظلاما رغم تلك الإضاءة البيضاء الصارخة، وقفت في الخارج عند البوابة لأتصل بفاتن وأبي، كنت أشعر أن ذلك الخوف أكبر من أن أحمله وحدي.

وقفت طويلا وكأن ذلك الوقت الذي هربت منه قد وصل إلي أخيرا، يقيدني بسلاسل من الساعات والدقائق، كل ثانية تمر كانت كرصاصة تصوب نحو قلبي ولا تقتلني.

رأيته أمامي فجأة وظل فاتن يتبعه، غضب يفور في وجهه حتي تحول إلي جمرة مشتعلة، تلاقت أعيننا، فرأيت فيهما كراهية تحترق خلف حرارة الغضب، صفعة مدوية سقطت علي وجهي وهو يردد:

-أتظن نفسك قد أصبحت رجلا لتركض بها وحدك وتأخذ سيارتي!

تسمرت مكاني في ذهول وتركته يمضي إلي الداخل كي يراها، نظرت حولي فرأيت كل شئ يحدق فيا في خجل ، الأشجار ، الرصيف ،المارين بسياراتهم والمترجلين! كل شئ كان يشهد قبحه كما يشهد أنين جميلة، لكن لا شئ يتحرك، فقط الوقت!

أشرقت الشمس ولم أراها، سرب من الغربان يحلق فوق رأسي مباشرة يكاد أن يلمس شعري مع رفيف أجنحتها القوية، ركضت إلي الداخل مفزوعا فوجدت الطبيب مع أبي وفاتن، اقتربت لأسمع حديثهما:

- لقد نفذ الوقت!

هوي قلبي إلي قاع الأرض، كياسمينة أفلتت الغصن وأختفت تحت التراب.

~~~~~~~~~~~~~

أدركت أني لم أكن سوي حيوان أمارس الجنس لسنوات كعادة سرية، حتي أكتشفت أن عطش أجسادنا أكثر بكثير من أن يروي بقطرات ماء باردة وأن الأتصال بين جلدنا و شعورنا أعمق بكثير من مجرد الملامسة.

أن تمارس الحب فأنت تشبع روحك قبل جسدك،تلتحم بالحياة علي شكل امرأة ، امرأة واحدة دون نساء العالم من يمكنها منحك الحياة من داخلها، الكل يتعرى خلف الأبواب المغلقة، لكن قليلون من يتعرون حقا مع أجسادهم، يكشفون ندوب أرواحهم و يتعلقون في أجساد من يحبون ليتحرروا من تلك الندوب دون خوف.

كرضيع وضعت رأسي عند نهديها، كغارق أحطت خصرها بذراعي، يديها علي شعري كأنامل من نور تضئ رأسي،
~~~~~~~~~~~~~

تذكرني بمن أنا، تلك الذات التي فقدتها سنوات طوال زارتني خلسة في تلك الليلة، تذكرت كل شئ فشعرت بدمع مخنوق في عيني، وضعت يدي مسرعا علي وجهي أرفض أن يتحرر ذلك الدمع فسألتني؛

-لماذا؟

-الرجال لا تبكي.

-الأ يملكون غدد دمعية؟

-بلي!

-إذن تلك المقولة حمقاء لرجل بكي حتى جفت عيناه، كل شئ في هذا العالم يبكي يا عزيزي، بداية من الوليد الباحث عن ثدي أمه إلي الكهل الذي سلبه المرض الحياة. الأعمي يفقد عينيه ولا يفقد دموعه.إن كانت الدموع دليل ضعف فما المخزي أن نكون أحيانا ضعفاء؟

-لقد ضعفت بما يكفي.

تنهدت وربت علي كتفي وهي تهمس لي وكأنها تحدث نفسها؛

-كل شئ سيكون علي ما يرام.

-و كيف سيصبح وقتها؟

-كتهدئة طفل غاضب كسر ألعابه آلاف المرات.

- ولكن ماذا لو طلعت الشمس ولم يتغير شيء؟

-سننتظر يومًا آخر ، حتى تشرق الشمس من جديد.

حين أشرقت الشمس كانت ليلتي الأخيرة مع نسرين.

~~~~~~~~~~~~

علمتني جميلة ان الحب امرأة، والجمال امرأة والحياة امرأة، وأن القوة في الرجال ليست في أجسادهم بل في قلوبهم، لكنها نست أن تخبرني أن الألم يمكن أن يكون أيضا امرأة.

في الليلة الأخيرة مع نسرين، مرت حياتي أمام عيني ككهل أوشك علي الرحيل، وأظن أن تلك اللحظة هي الأصدق دائما، حين تري حياتك أمامك كشخص آخر، لا يمكن لشئ غير الرحيل أن يمنحك الحقيقة كاملة.حينها فقط ستدرك حجم الهشاشة بداخلك.

ولأن أسوء ما في اللحظات الأخيرة هي معرفتك بها، فتضيع منك بسبب حزنك علي ما بعدها ، ولو أننا أذكى لكانت هي اللحظات الأسعد دائما، فقط إن وضعنا الحزن جانبا، لكننا نستعجل وجوده كنوع غريب من الألفة التي نخشي فقدانها.
~~~~~~~~~~~~

في الليالي الثلاثة لم أكن أهرب من مريم ولا من أرض الأحلام، لم أكن أهرب من واقع بل كنت أهرب من خيال، من ظلي المائل الملتصق بي، من صورتي الكاذبة على المرآة.

أطوف حولها كفراشة حول النور، أعانق فيها الماضي ، أري في عينيها جميلة تبتسم، في أنفاسها حياة رسمتها بالأمل والفرح وأضعتها بالجبن والاستسلام.

ليت الماضي يعود يا نسرين
لنعود شابين يركضان خلف أحلامهم
المحلقة كطائرة ورقية في يد طفل صغير
ليت جميلة تعزف من جديد
فيرقص الليل على شعرها
و تشرق الشمس مع وقع أقدامها الطويلة
كطائر اللقلق الأبيض
ليت تلك السنوات تختفي
بذكرياتها الكئيبة ولياليها البطيئة
و تكرارها الذي لا ينتهي
أسأل نفسي في وداعك
وأنا أنظر إلي عينيك التي تحمل الرجاء

كم مرة سنفترق حتى نلتقي؟

~~~~~~~~~~~~~~~~

كانت المرة الأولي التي أراه فيها، بعدما انتهينا من مراسم الدفن ، رحل الجميع وبقيت وحدي أنظر إلي السماء وهي تغرب ، بين شروق وغروب تخيلت الأف الكلمات تكتب أقدار جديدة لم تكن لنا ، كان الفاصل بين جسدينا متر واحد وبين أرواحنا مسافة الأرض و السماء.

شعرت في البداية بنسيم قوي من حولي، ظننت أن روحها لا تزال هنا تعانقني، لكني لمحته فجأة أمامي، يضع الورود البيضاء فوق قبرها ويرفع يديه إلي السماء يصلي، لم أسمع صوته كما لم تلتقي أعيننا أبدا، تراه لا يراني؟

في تلك اللحظة اختلط كل شيء، حتى أني لم أعرف من فينا الحقيقي ومن النسخة الأخري!

جاء صوت الحارس من خلفي يخبرني أن الوقت تأخر ويجب أن أرحل، هززت رأسي وعدت أنظر من جديد فوجدته اختفى وترك الزهور في مكانها، ناديت على الحارس و سألته عن من وضع تلك الزهور، ضرب كف
~~~~~~~~~~~~~~~~

بكف وهو ينظر إلي مشفقا على الرغم من هيئته الرثة التي تثير شفقة القبور حوله؛
-لا حول ولا قوة الا بالله! أنت يا بني من وضعتها هنا بيديك، أذهب إلي بيتك وادعي ربك ودعها ترتاح ، فالأموات يحتاجون إلي الراحة أكثر من الأحياء.

~~~~~~~~~~~~~~~~

مضي أسبوعين ،كنت مازلت تحت تخدير نسرين، أري كل شئ حولي بعين جديدة، ذلك الزحام اليومي لم يعد يزعجني بل أصبح فرصة لأكون وحدي ، أستمع إلي الموسيقي و أدندن ألحان قديمة لأم كلثوم، أبتسم في وجه الجميع حتى العابرين في الإشارات الخضراء، أقف ليمروا متجاهلا أبواق السيارات خلفي وعلى وجهي ابتسامة بلهاء لا تختفي، ألقي النكات الجنسية على أصدقاء المكتب فيضحكون طالبين المزيد، شاهدت الأعلان وهو ينفذ و رفعت اللوحات فوق الكباري وعلى الطرقات،
" اصنع جنتك كما تحلم"
ضحكت ساخرا وحمدت الله أن لن يمكن لأحد أن يقاضيني علي الفكرة، فبعد رضاء المديرين عنها خرجت من مكتبهم ولم أكترث فأنا أعرف أنهم سيعودون إلي من جديد بعد فشلهم في المبيعات، فالأمر برمته لا يتلخص في شعار،
~~~~~~~~~~~~~~~~

وأرض الأحلام تحتاج إلى معجزة كي تدخل حلبة المنافسة، لكني على الأقل منحتهم طُعم يشبعهم قليلا ويخف النظر إلي.
جاءت زيارته مفاجأة ، كنت أعرف أنه سيتردد على المكتب كثيرا ليتابع مشروعه لكن الغريب أنه طلبني بالأسم فخرجت له وفي رأسي ألف سؤال.

يحيي حبيب رجل في منتصف الأربعينات أي أنه يكبرنا أنا ونسرين بعشرة أعوام علي الأقل، لكنه يبدو أكبر عمرا بجسده الضخم وذقنه القصيرة البيضاء ، وجهه هادئ تظنه للوهلة الأولي شخص ودود لكن عينيه فيهما خبث غريب، ربما بسبب تلك السحبة في طرف جفنيه والتي أظهرتها كعيون الثعلب.
اتجهت نحوه وصافحته وانتظرت أن يبدأ الحديث، طمأنت نفسي بأن زيارته لي بعد ترشيحي من قبل مدير المبيعات لأرد على أسئلته وأن لا شئ يستدعي الخوف، أشعل سيجاره ووضع قدم فوق الأخرى وهو ينظر إلي صامتا، بدأ دبيب خوف يصل إلي حاولت إخفاءه حتى بدأ بالكلام أخيرا وهو ينفخ دخان سيجاره في وجهي:
-أخبرني يا طارق كيف نصنع جنتنا كما نحلم؟
تنفست الصعداء وابتسمت وأنا أشرح له أنه مجرد شعار المقصود منه اختيار التصميم المناسب لك.

-أفهم ذلك جيدا إلا إذا كنت تحسبني غبي؟
-العفو يا فندم.
قلتها مضطربا.
-أتعلم ما الشيق فعلا في الجنة؟ ليس المكان فقد رأيت أماكن أجمل من أن أحلم بها، لكن الأنسان هو ما يضيف المعني للمكان.
حاولت استرجاع ابتسامتي وأنا أؤكد علي كلامه.
-لا يمكننا أن نحتفظ بالشياطين في جنتنا، ألست محقا؟
في تلك اللحظة شعرت بنبض قوي يتنفض في صدري ثم أجبته بصوت حاد قليلا؛
-لا أفهم يا فندم مقصدك، أرجو التوضيح حتي يمكنني مساعدتك.
ألقي بالسيجار في منفضة السجائر دون إطفائها ووقف مبتسما وهو يخبرني:
-لا بأس ستفهم قريبا.

~~~~~~~~~~~~~~

أربعون يوما قد مضت منذ رحيلها ورحيل فاتن، لم أخرج من غرفتي كنت أكره أن أري كل شئ في غير موضعه كما عودتني جميلة، رائحة التراب تغطي الأركان، و بقايا الأكل في كل مكان ، كل شئ في الشقة أصبح يثير اشمئزازي
~~~~~~~~~~~~~~

ويذكرني بالخراب الذي تركته خلفها وعلي رأس القائمة كان أبي ، يعود من العمل بوجبتين طعام يلقي أحدهما على الطاولة ويتناول الأخري وهو يشاهد التلفاز ويبقى أمامه حتى يغلبه النعاس.
لا كلمة واحدة ، لا دمعة واحدة، لا شئ حدث ولا شئ يحدث حتي ذلك اليوم.

ملئت غرفتي بأصائص الياسمين ، لكن رائحتها لم تعود أبدا، وكأن ذلك الياسمين مجرد زهور بلاستيكية بيضاء، لم أرد على اتصالات نسرين ولم أتحدث إلي أي أحد طوال تلك الأيام، أرقد علي سريري أشاهد ظلي في سقف الغرفة.
ضخم كسحابة سوداء فوق رأسي، لا تتركني أبدا.

ذلك اليوم سمعت صوت غريب في الخارج، صوت نسائي تخيلت أنها نسرين فأسرعت إليها خوفا من أن يعاملها أبي بحماقة أو يطردها، لكنها كانت امرأة غربية ترتدي عباءة ملونة بكل الألوان وعلي رأسها حجاب أبيض في محاولة فاشلة منها لتخفيف حدة الألوان، وجهها أسمر شاحب تضع أحمر شفاه صاخب زاد من شحوبها، توقعت أنها خادمة جاء بها أبي لتنظيف تلك الفوضى، لكني أدركت الفوضى الحقيقة حين ابتسم أبي في فخر وهو يعرفني بها:

-أعرفك بعفاف، زوجتي.
مدت يدها مبتسمة فزاد وجهها قبحا أفزعني حتى أني تخيلتها ممسكة بسكين، قلت في صدمة موجعة وأنا انظر إليها
-ستغضب أمي كثيرا.
عبس وجه أبي ونظر إلي كمن يهددني بالعقاب ثم أعتذر لها قائلا:
-سامحيني ، طارق كان شديد التعلق بأمه، ابن أمه كما يقولون.

ركضت إلى غرفتي من جديد أود الاختفاء ، أدور في حلقات خانقة و ظلي فوق رأسي يدور في بطء شديد.

كسرت أنية الياسمين فامتلأت الغرفة بالطمي ورأيت ديدان تركض من داخلها وتدور معي.

~~~~~~~~~~~~~~~~~

لاحظت مريم التغييرات التي مررت بيها بداية من سفري المفاجئ حتي التوتر الذي أصابني بعد زيارة يحيي مرورا
~~~~~~~~~~~~~~~~~

بحالة السُكر والسعادة بينهما، لكنها لم تبدي استنكارها ، تراقبني من بعيد في صمت وكأن لديها تفسير لكل شئ.

لكن القشة التي دفعتها للحديث هو لقاء الجمعة الحميمي حيث كنت أتهرب منه بحجج فارغة وكأن الابتعاد بجسدي هو فقط المؤشر أن شئ ما قد تغير وأن تلك الجثة لو فقط بإمكانها أن تمارس الجنس كما اعتادت لما كان هنالك مشكلة.

كان بداخلي صرخة تمرد خلقتها نسرين دون أن تدري، أو حررتها من الاستسلام الذي دفنتها فيه وتناسيت وجودها، لم يعد شئ كما كان ، فبعد أن أنفض سحر لقاؤنا الذي لون العالم من جديد بدء دبيب الحنين يغزو قلبي وحين أدركت اختفائها تحول إلي غضب نحو كل شئ وتحولت الألوان من حولي إلي لوحة من العبث تثير أعصابي طوال الوقت.

رأيت العالم في أقبح صوره وكأن جميلة قد ماتت بالأمس، حاولت الأتصال بها كمدمن يبحث عن جرعة تمنحه السلام من جديد لكنها كانت اختفت تماما، فازداد غضبي وسخطي، صرت أصرخ في مراد حين يلعب بصوت عالي أو في مريم حين تسقط حبة ملح زائدة في الطبق.

سألتني مرارا عن سبب تغيري وأنكرت في كل مرة حتي توقفت عن السؤال.

وكأن الأقدار لا تنزل بنا سوي عند شروق الشمس وغروبها، وكأن ما بينهما هو وقت لتدبرها ليس أكثر. تلقيت رسالتها القصيرة بعد الفجر كشهاب سقط فوق رأسي، تصيدني من أعلي السماء كسهم صدد مباشرة نحوي.

-لم يكن العالم بمثل ذلك الجمال قبل أن نلتقي، ولم يكن بمثل ذلك القبح إلي أن رحلت!

أرسلت بعدها ألف رسالة وألف اعتذار والالاف من علامات الأستفهام، لكنها كانت قد أختفت من جديد وكأنها في سجن و سمح لها فقط بتلك الدقيقة قبل العودة خلف القضبان!

كنت ثائر كثور أطلق في بحر من الدماء ، أطلقت المياه الباردة فوق رأسي لأطفاء تلك السخونة التي أوشكت به علي الانفجار.

رفعت رأسي بعدها والمياه تنحدر من علي شعري حتي أصابع قدمي، نظرت في المرآة طويلا ثم جففت عيني لعل المياه فوقهما خدعتني لكنه لم يكن هناك!

أختفت صورتي في المرآة فاندفعت نحو غرفتي أبحث عنها في المرايا فلم أجده فاندفعت نحو غرفة مراد ، بحثت في كل مكان وعلي كل سطح يمكنه انعكاس صورتي لكن لم أكن هناك.

اندفعت كالمجنون أكسر المرايا، أصرخ في وجه مريم.
اتهمها بأن كل ذلك من صنعها كي تدفعني إلي الجنون ، ركض مراد نحوها مفزوع فضمته نحو صدرها ووقف كل منهما يشاهدني في فزع، ثورة طال كتمانها فكنت أنا أول من طاح فيها.

ارتديت ملابسى وتركت كل شئ حولي كرؤوس مفصولة أثر معركة دامية.

~~~~~~~~~~~~~~
~~~~~~~~~~~~~~

نفس المكان، لم تتغير ألوان الجدران، الأثاث كما هو منذ سنوات، لكن الهواء قد تغير ، روح جديدة قد سكنته فطردت روح جميلة منه. للبيوت روائح لا يمكن أن تتشابه كأنها بصمات سكانها ولا يمكن تفسيرها، ربما كانت مزيج من أنفاسهم و طعامهم وربما حتى لفضلاتهم!
طغت رائحة عفاف علي المنزل، حتى غرفتي التي حرصت أن لا تدخلها تبدل هواؤها كغاز سام يقتلني ببطء.

كنت أناجي جميلة في وحدتي، أرسل إليها السلام وذكرياتنا معا مع طيفي المعلق علي الجدار كمياه أفسدت الدهان وعاشت بداخله، وكنت أسمع ردها عبر حفيف الأشجار وتغريد الطيور ونسيم الفجر البارد، لكن كل ذلك أختفي بعدما طغت روح عفاف علي المكان، فهل غضبت أمي و صعدت روحها بلا عودة؟ هل كرهت الأرض وسكانها حتي ما عادت تطيق أن تحلق فوقها؟ هل لعنت ذلك المنزل الذي شهد شبابها وامومتها وقضت بين جدرانه أغلب سنوات عمرها؟

ولعلي كنت بقايا منها أفسد علي أبي رائحة المنزل الجديدة، وكأنه عكسي لا يريد أثر لها، أو لعلي وجهي يذكره بغباؤه

حين تزوج امرأة لا تشبه جميلة في شئ سوي أن كلتاهما أنثي علي الورق.

كان حديثنا الأول والأخير حين طلب مني الزواج من مريم و الألتحاق بالعمل في البنك الذي توسط لي فيه، سيكون لي شقتي الخاصة وبإمكاني بدء حياتي بطريقة يحلم بها أي شاب في سني، كما كان يري.

كنت أشعر بعري ، كرضيع أسقطته أمه يوم ولادته ومضت، كان الضوء يؤذي عيني ،أبحث عنها كي تحملني وتمحو عني ذلك الخوف من حياة مجهولة لم أختار فيها حتى أسمي.

استسلمت تماما لليد التي حملتني بعيدا عن رائحة أمي، لم يكن لساني يعرف الكلمات بعد، كنت جائع للعالم وهكذا بقيت، رضيع تائه لا يمكنه حتى الصراخ ليخبر العالم بأنه قد أصبح جزء منه.

~~~~~~~~~~~~~~~~
~~~~~~~~~~~~~~~~

وصلت إلي الشركة وأنا أشعر بشظايا المرايا متعلقة في ثوبي وحذائي، لمحته فور دخولي يجلس مع مدير المبيعات . تحاشيت النظر إليه وأسرعت إلي مكتبي.

بعد قليل طلب مديري رؤيتي، لم أكن في مزاج لأي نقاش. مديري المباشر شخص ودود يكبرني بخمسة سنوات علي الأكثر، لكنه يحب دائما تقمص دور الأب بالرغم من جبنه الذي يمنعه الدفاع عن موظفيه، لكنه قادر علي دعمك نفسيا مادام الأمر لن يزج به في أي مشاحنات مع الإدارة العليا.

ابتسم لي حين دخلت وحياني وهو يرتشف قهوته، لم أرتاح رغم تلك الإبتسامة خاصة في وجود يحيي في الخارج.

-لماذا تغيبت طوال الأسبوع الماضي؟ حاولنا الوصول إليك لكنك لم يكن لك أثر!
سألت نفسي أي مزاح هذا السخيف في بداية اليوم.
-تغيبت عن ماذا؟ لقد كنت هنا كل يوم !

نظر إلي بنظرته الشافقة المعتادة وسألني هامسا:
-يا طارق، بعيدا عن العمل ،أنت أخ لي أخبرني ماذا بك؟ ربما أستطيع مساعدتك.

شعرت بغضب شديد ونظرت عبر الباب الزجاجي إلي الخارج وبدأت أشعر أن هناك مكيدة ما خلفها يحيي.
-إنه يحيي أذن؟
سألته
رفع حاجبيه في إندهاش؛
-ماذا عن يحيي؟ ما علاقته في ذلك الأمر؟ كنت أظنك لا تعرفه!

-أنا لا أعرفه بالفعل، لكنه يبدو أنه يترصدني.
-هل نظرت في المرآة قبل أن تخرج؟ هل رأيت كيف تبدو؟ لا شك بأنك في حاجة إلي طبيب. أعرف طبيب نفسي جيد كان يزوره قريب لي بعد تعرضه لصدمة وفاة زوجته وولده. أعتقد أنه سيمكنه مساعدتك.

ازداد الغضب كمن يشعل فتيل تتحرك فيه النيران ببطء
-هل تظن بأني مجنون؟
-لا يا طارق، كلنا نتعرض لضغوط نفسية من شأنها أن تنتزع راحتنا وتشتت أفكارنا، كما أني لن أخفي عليك، بعد اختفائك الأسبوع الماضي ونتائج الحملة الإعلانية المخذلة لم يعد لدي شيء لأدافع به عنك أمام مدرائي. أعلم أنك لست

شغوف بالعمل معنا لكني أنصحك أن لا تضيع وظيفتك بحماقة، أنت أب ومسؤول ولا أظن عودتك للعمل في البنوك سيكون أفضل من هنا.

أشتعل الفتيل لأخره حين ذكر من جديد أمر غيابي عن العمل، نظرت من جديد إلي يحيي فلاحظ مديري ذلك وقاطع الشكوك المغروسة في صدري.
-يحيي هنا لأنه ينهي التعاقد معنا، إنه لأمر مشين في حق الشركة، كان تعاقده بمثابة شهادة أمام الجميع بأننا محل ثقة لكن لك أن تتخيل الأن ضعف موقفنا.

-لماذا؟
سألته وأنا أظن بأني أعرف الإجابة الحقيقية، لكن ما سمعته بعدها كان أخر ما تمنيت سماعه، سقطت الكلمات على رأسي كفأس يشق طريقة نحو منتصف رأسي.
-يدعي بأنه لم يعد بحاجة لتلك الڤيلا ، فقد كان يود أهداؤها لزوجته والتي توفيت منذ أسبوع في حادث سيارة.

خرجت كمجنون حقيقي أركض لا أعرف إلى أين، ركبت سيارتي وقدت بسرعة لم أدرك أن بإمكان سيارتي الوصول إليها من قبل.

~~~~~~~~~~~~~~~~~~

كنت أطوف في الفضاء كريشة بيضاء، تقودني رفرفة أجنحة عملاقة لنسور نحو النور ، تخفيت في جوف سحابة صغيرة حملتني معها من المشرق إلي المغرب، رأيت الأرض نقطة زرقاء ، يشطرها الليل والنهار.سمعت ضحكات هستيرية تلاها صراخ مدوي، أناس أقزام بأجنحة فراشات، بعضها يسقط نحو الأرض وبعضها يصعد إلي السماء.

رأيت عيون حمراء بحدقة سوداء متسعة ، تنظر نحوي و تقترب، ثم سمعت صوت أشبه بهدير متصل يصنع جملة واحدة:

-ماذا تفعل هنا؟

حملتني بين منقاريها و فتحت جناحيها علي مصراعيهم، نظرت حولها ثم طارت نحو الأسفل بسرعة هائلة، كصخرة كسرت من قمة جبل فهوت بعيدا عن موطنها.

وضعتني في الفراش و طارت من جديد ،حين فتحت عيني وجدت الأقزام من حولي في ثياب بيضاء، لم أعرف إين أنا أو من هؤلاء ، لكني سمعت أحد منهم بصوت طفولي؛

-حمدالله علي السلامة.
~~~~~~~~~~~~~~~~~~

~~~~~~~~~~~~~~

"ما لا يقتلك، بسهولة يجعلك أكثر غرابة" *
تذكرت تلك المقولة المحرفة عن عبارة نيتشه الشهيرة "ما لا يقتلك ، يجعلك أقوي"
و شعرت بصدق الأولي ، فلم يمنحني موت جميلة القوة بقدر ما منحني شخصية أخري لا انتمي إليها.
حين التحقت بالعمل في البنك بعد توسيطة أبي، كنت شخص أخر ، شهرين من العزلة بعد موتها كانوا كافيين لنزع السلام بداخلي والبحث عن جدران آمنة للأحتماء بها.

فقدت روح السخرية والمزاح ، كرهت الأغاني والموسيقي، توقفت تماما عن الحلم والتخيل، بدأت أؤمن أن لا شئ يستحق الإبتسام كما إن لا شئ يستحق الحديث عنه.

قالت لي عفاف وأنا أفتح الباب في محاولة منها لتظهر لطفها واهتمامها:
-الوقت يهون كل ألم يا بني. فقط لا تستسلم.
~~~~~~~~~~~~~~

نظرت إليها في مقت، أري وجهها قبيح كوحش يتبعني في كابوس بلا عينين . اختنق برائحتها الغريبة الأشبه بخبز محترق.

-فقط لا تقولي بني.

ثم مضيت وقد دفعت الباب خلفي بعنف. أفكر أثناء الطريق في حماقتها ! الوقت يضعف ذاكرتنا لكنه لا يمنحنا ذاكرة جديدة. كثيرا ما نشعر بالحزن فجأة كغصة في صدورنا ولا نعرف السبب، وقد يكون السبب أبعد من أن نتذكره، كطفل صغير رفض اللعب معك وتركك وحيدا خلفه أو كمعلم صرخ في وجهك وسط زملائك فبكيت ليلا علي وسادتك. لا يمّن الوقت علينا حين ينسينا السبب مادام الألم الذي لحق به مازال موجود ويُبعث فينا علي غفلة منا كل حين.

دخلت غرفة مدير الفرع فوجدته في انتظاري، رجل في أواخر الخمسينات يبدو منمق في كل شئ، ذلك الخط الرفيع الذي يفصل خصلات شعره إلي اتجاهين متساويين، ربطة عنق زرقاء في المنتصف تماما ، أسفل العنق بقليل وكأنه قد قام بقياس الأبعاد من حولها ليتأكد من مثالية مكانها، مكتب شبه فارغ أظن أنه قد صنع لكل ورقة درج خاص بها.

رحب بي وعرفني بنفسه وفي صوته شعور بالفخر وكأنه المؤسس للبنك.
-أنا وعيد زملاء فصل واحد، كنا نتشارك الطعام والمقعد لكنه كان مجتهد أكثر مني فالتحق بكلية الهندسة، خسارة! فقد دفن نفسه في ذلك المكان الحكومي والذي كان ليربح أضعاف راتبه إن استغل الفرص من حوله.

سكت وأنا أنظر إلي ظلي الجالس بجواري كقط أليف يتبعني.

-لا أظنك رجل تقليدي مثل عيد، فهل أنا محق؟
سألني من جديد لفتح حوار للتحدث عن نفسي.
-أنا لست عيد.
أجبت باختصار
-لنري إذن حماس الشباب في أول وظيفة.

أي حماس؟ قلت لنفسي. كيف يمكن لرجل في خبرته الا يقرأ وجوه الناس ، أن يعرف بأني أعاني الفقد وأن أخر ما أوصف به الأن هو الحماس.

*فيلم فارس الظلام"

~~~~~~~~~~~~~~

تزوجت مريم وسط طقوس أشبه بالحداد، لا زفاف، لا أغاني،لا أضواء ملونة وزغاريد ، فقط اتجهنا إلي شقتنا التي جهزها أبي في وقت قياسي لا يتعدى الثلاثة شهور وكتبها بأسمه كي أبقى تحت ظله دائما.

شعرت وأنا أغادر المنزل بجزء مني يتحرر ليقيد جزء أخر ، تمنيت لو بإمكاني أن اقتلع جذوري منه، لكني كنت مازلت أحمل اسمه كحمل ثقيل، و بزواجي من مريم فقد ضمن أن تظل جينات عائلته ممتدة حتي بعد وفاته.

جلس كل منا علي طرف السرير ، كانت رأسي أشبه بقطار سريع يعرض صور من الماضي بشكل متصل، نسرين وهي تبكي، جميلة وهي تتألم، عفاف في سرير أمي، فاتن وهي ترحل.

وددت القفز من ذلك القطار حتى وإن تسبب ذلك في كسر رأسي، فيما كانت تفكر؟ ربما مثلي، تتذكر حياتها التي لا أعرف شئ عن تفاصيلها، أو ربما تشعر بالخجل من صمتي.
~~~~~~~~~~~~~~

تركتها واتجهت إلي الخارج، فتحت زجاجة النبيذ التي أهداني إياها زميل لي في البنك قائلا؛
-إن لم تمارس الجنس من قبل، فتلك الزجاجة ستجعلك جرئ و قوي كنمر آسيوي ، سوف تشعل الحرارة في جسدك فيندفع الدم نحو أطرافك، لكن طرف واحد ما يعنينا الآن.

شربت كأس بعد كأس، حتي انتهت الزجاجة ورأيت نور غرفة النوم ينطفئ ، ربما يأست ونامت بعد أن طال انتظارها. حاولت النهوض لكن رأسي كان مثقلا فلم أقوي علي النهوض، رأيت صورتي علي شاشة التلفاز المطفأة ، أترنح يمينا ويسارا كالبندول. نظرت إلي جسدي كان ساكنا. لم أحتمل المزيد من العبث في رأسي فأطفأت المصباح بجواري فاختفت الصورة وساد الظلام.

لم يكترث النمر للغزالة التي ظلت منتظرة في الداخل حتي بعد كل محاولاته لإيقاظ رغبته.

وجدت نفسي اتصل بنسرين، أسمع صوتها للمرة الأخيرة، لم تكن قد عرفت بعد بأمر زواجي ، اسألها أسئلة مجنونة إن كانت جميلة قد زارتها؟ فتسألني إن كنت بخير؟ أعود لأسألها

عن معنى الموت، عن معنى الظلم. كطفل صغير يتعلم الكلمات، تعود لتسألني عن ما الذي تعاطيته؟
أخبرتها بأني تزوجت!

سكتت طويلا وكأن عمر قد مضى في صمتها ثم أجبتني باختصار:
-لقد جاوبت بنفسك على أسئلتك

~~~~~~~~~~~~~~~~

خرجت من المشفى بعد يومين أدركتهم من تاريخ الفاتورة والتي كلفتني كل ما في جيبي.

لم يزورني أحد حتي مريم، فكرت أثناء عودتي إلي المنزل في غرابة المرأة ، يمكنها أن تمنحك حياتها إن رضت لكن إن رحلت فلن تشفق عليك حتي بابتسامة وإن كنت على فراش الموت.

شعرت بدوار خفيف . مشوش عقلي كثيرا .لا يمكنني اللبث في فكرة أكثر من ثواني حتى تظهر فكرة أخري دون أن
~~~~~~~~~~~~~~~~

ترحل الأولي، ازدحمت رأسي بالصور والأصوات حتى ما عدت أفرق إيهما لنسرين وإيهما لمريم.

دخلت المنزل وانتظرت برهة لعل مراد يركض نحوي ليعانقني ويطمئن علي، لكنه لم يأت

عاد كل شئ كما كان، لا شظايا زجاج، لا أثر لحياة ،كل شئ متجمد مكانه وكأن أحد لم يلمسه.

كنت مجهد كمن لم ينم منذ أيام، ألقيت بجسدي على السرير دون حتي أن أخلع حذائي. لمحت ورقة بجواري على الطاولة قبل أن أغمض عيني.

" عزيزي طارق،
لقد حاولت أن أكون زوجة جيدة على الرغم من ذلك الشتاء الدائم الذي عشته معك، ولا يعيبني الأن أن أعترف بأني فشلت!

مسكينة نسرين، لم تتخيل معنى العيش مع جثة! أتظن أن لا أحد يعرف؟ لقد عرفنا كلنا حتى هو قد عرف!
وداعا..."

وضعتها مكانها وغفيت في طرفة عين.

~~~~~~~~~~~~~~

حاولت التأقلم مع الحياة التي اختارها لي أبي كسمكة اعتادت الحياة في مياه عذبة ثم ألقيت في البحر، يخرج الماء من داخلها بدل من الدخول إليها لكني كنت أعلم في النهاية بأنها قد تموت من الجفاف.

وسط أوراق الشيكات والعملات الورقية وماكينة عد النقود مضت النهارات ثقيلة بين وجوه غريبة تتغير كل يوم، سألني مديري إن كان بإمكاني أن ابتسم في وجوه العملاء فحاولت ذلك مرارا ثم توقفت.

كنت أسمع همس زملائي عن مدي غرابتي، ولا أعرف ما الغريب في أني لم أكن مهتم بتفاصيل حياتهم اليومية التي تعاد مرارا وتكرارا، حتي أني حفظتها عن ظهر قلب علي الرغم من عدم مشاركتي في أي منها. فالموظف الأسمر ذو الشارب السميك يشكو من هجر زوجته له في الفراش فينصحه أخر يفتخر دوما بتعدد علاقاته النسائية:
~~~~~~~~~~~~~~

-يا صديقي النساء يرغبن ويتمنعن، فقط يحتجن أن يشعرن بأنهن صاحبات القرار، داعبها ثم أتركها جائعة وستأتيك علي أحر من الجمر.
لم تفلح نصيحته وقد كنت أتمني أن تفلح حتي لا اضطر إلي سماع المشكلة من جديد.

مضت الأعوام الثلاثة الأولي علي نفس المنوال، أيام لا أجد وقت للتنفس وأيام أبقي وحدي اتأمل شاشة الحاسوب لساعات.

حتي ذلك اليوم التي أتت نحوي في ثوبها الأبيض المفضل لديها، تحركت في دلال وأسقطت نظارتها الشمسية ، ابتسمت في وجهي وسألتني عن حالي. نبض قلبي مسرعا ود أن يقفز عبر الحاجز الزجاجي يحتضنها. لا يمكن وإن تشابهت نساء الأرض أن تشبهها امرأة.

ارتسمت علي وجهي ابتسامة بعرض السماء، شعرت بالهواء يحملني بخفة ريشة تتحسس شعرها الأسود وتختفي بين خصلاته الملساء.

-جميلة.

هتفت والدمع يترقرق في عيني.

ثم شعرت بيد تجذبني من كتفي ، وأصوات تتصاعد من كل مكان.

في غرفة مدير الفرع كانت الدقائق الأخيرة لي في هذا المكان، اتهمت بالجنون، بالتحرش، بسوء الأخلاق وعدم الأتزان ومئات التهم التي لم أسمعها ، كنت أشعر براحة خفية في أعين الجميع وأنا ألملم مكتبي لأرحل، لكن عيني كانت تائهة ، تبحث عنها وسط عشرات الوجوه.

لم تكن هناك!

~~~~~~~~~~~~~~~

سمعت صوت البيانو من جديد، نفس اللحن بعزف أكثر دقة لكنه لم يصل بعد إلي عزف جميلة، اتجهت إلى الصالة أتبع الصوت فرأيت حركة في الظلام لجسد أمام البيانو الذي لم يكن له وجود من قبل.

أرتعش قلبي واتسعت عيني على وسعهما لعلي أرى وجهه، في بطء تسللت نحو المصباح الجانبي بجوار الأريكة
~~~~~~~~~~~~~~~

وفتحته. توقف العزف ثم وقف أمامي فجأة وكأنه قفز نحوي بسرعة الضوء.
-هل افتقدتني؟
سألني بنفس الابتسامة في المرآة، انحشر صوتي في حنجرتي حتى خرج أخيرا
-من أنت؟
بدأ يدور حولي وهو يردد كصدي متداخل مع الصوت الأصلي:
-لقد قلت "إن كان من الصعب وصف الأشخاص بحيادية فلك أن تتخيل وصف نفسك" فلتجب أنت إذن!
-هل أنت شيطان؟
سألته وقد بدأت أشعر بالدوار من فرط حركته حولي.
-ولما لا أكون ملاك؟
-لأني لست ملاك.
-ولست شيطانا أيضا!

توقف ثم جلس على الأريكة وأعاد ظهره إلي الخلف ووضع قدم على قدم والابتسامة لا تزال على وجهه.
-ماذا تريد مني؟ لماذا تتبعني أينما ذهبت؟
-لم أتبعك أبدا! أنت من كان يطلبني، أنت من بحثت عني طوال الوقت.

جلست علي الكرسي المجاور بعدما زاد دوار رأسي حتى أوشكت علي السقوط.
-لا شك بأني فقدت عقلي.
قلت وأنا أضع كفي على عيني محاولا إبعاده عني
-لم تفقد عقلك، لكنك فقدت إيمانك، تلذذت بالحزن بكل جوارحك وفضلته حتى على نفسك.
كمتهم وقع عليه ظلم بين أجبت بسرعة:
-لم أتلذذ بالحزن. من بإمكانه علي أي حال؟ لكني أمنت به بقوة ،فلا شئ أصدق منه رأيته.أنظر حولك نحن نولد خائفين حزاني علي مغادرة أرحام أمهاتنا، تذبل الزهور وتسقط فتودعها الأغصان في حزن، نحبس الطيور في أقفاص حديدية لنتأمل حزنها وهي تفقد حريتها، نراقب أحلامنا وهي تحتضر ولا نملك الحياة لإنقاذها. إنه عالم حزين.
عاد يتحرك من جديد ووقف خلفي حتى اقترب من إذني:
-ماذا عن ذلك الرضيع حين تضمه أمه لترضعه للمرة الأولي، ماذا عن الأغصان حين تزهر ويفوح عبيرها، ماذا عن ملايين الطيور التي تحلق وتغرد كل صباح، ماذا عن الأحلام التي تتحقق دون تدخلنا! لقد رأيت العالم من زاوية واحدة ومكثت فيها طوال حياتك. استيقظ هنالك الكثير من الجمال حولك ولا تراه.

تذكرت كلمات نسرين في تلك اللحظة وربطت بينها وبين حديثه فسألته:
-هل أنت أنا في عالم آخر؟ نسخة أخرى مني تحيا سعيدة في مكان بعيد؟
ضحك ضحكة صاخبة نفرت منها فأبعدت رأسي عنه
-إنه عالم واحد كبير حتى وإن تعددت وجوه، ونحن كلنا في البداية والنهاية روح واحدة وإن تعددت الأجساد. نحن فقط من صنعنا الوقت وقسمنا ذلك العالم وانفصلنا في أجسادنا الخاوية.

بدأت أبكي دون أن أشعر، شعرت بضعف يتملك مني، وددت أن يرحل ذلك الطيف من حولي ومن رأسي إلي الأبد، لم احتمل ذلك الصخب في عقلي الذي يتغذي عليه ويوشك به إلي بئر الجنون.
-جميلة! إين أنتِ؟ أنقذيني من نفسي.
بدأ صوته يخفت:
-لقد أوقفت عالمك بموت جميلة، ليس حبا فيها بقدر أنانيتك.
عدت أدافع عن نفسي من جديد ودموعي لا تتوقف:
-لم أحب أحد كما أحببتها، لم أتخيل الحياة يوما دونها.

-بل لم تتخيل حياتك دونها! التصقت بها وعشت من خلالها. فماذا صنعت لها؟ حتى ذلك اللحن الذي عشقته لم تستطع عزفه. لقد ماتت وهي تتألم فمات الألم معها، لكن كل ما أحزنك أنها لم تعد تتألم من أجلك.

بدأت صورته تهتز وكأنها تتبخر في الهواء وابتعد صوته وكأنه همهمة:
-لقد رحل الجميع الأن، أصبحت وحدك من يملك قرار نفسك فأما أن تعيد نظرتك للحياة وأما تظل هنا تبحث عني في المرايا على الجدران.

~~~~~~~~~~~~~~~

أربعة وعشرون ساعة من السكون الجسدي، لا أذكر إن كانت عيني قد طرفت فيهم ، إعصار مر بعقلي ففتح شاشة أمامي تعرض الماضي بحياة ملموسة كأني أعيشها الآن، هل يعقل أن أكون ميت؟ وإني أري حياتي كفيلم سينمائي تعرضه ملائكة الموت؟
أكنت شخص جيد؟ هل ستحملني أجنحتهم إلي الجنة؟
~~~~~~~~~~~~~~~

لطالما رأيت نفسي متأرجح بين الجحيم والجنة؟ لم أكن جيد بما يكفي ولم أكن سئ بما يكفي.

رأيت طفل يحبو فوق السجادة البنية المزينة بنقوش غريبة كورود حمراء لم تتفتح أبدا،شعرت بخشونة السجاد تحت ركبتيه الغضة.يمد يديه القصيرة فيقبضها ممسك بالهواء. يبتسم حين يري أصابع قدميها الملونة بطلاء أظافر وردي، يرفع رأسه فيسقط لعابه على ذقنه. تحمله جميلة بين ذراعيها وتبتسم.

رأيت صورة على غلاف مجلة للممثلة باميلا أندرسون تجلس القرفصاء ،نهدين ممتلئان كبالونة مرتفعة تود الطيران، حدق الفتي وجسده يشتعل وهو يتأمل امرأة عارية للمرة الأولي، لمس كل جزء فيها بخياله حتي ذلك الكهف الدافئ المغطي بيدها البيضاء النحيفة ، غرق فيه حد الانتشاء.

ثم رأيت جميلة بضحكتها الواسعة تزين وجهها كبدر مضئ، رأيت جسدها شفاف كسطح نهر عذب،بدأت الدماء تدب فيه ببطء في البداية ثم تدور بداخلها أسرع فأسرع ، ينتفخ قلبها بالدماء، صوت دقاته يعلو كطبول تدق معلنة الحرب، نظرت

إلي وجهها مازال يبتسم رغم الحزن الساكن في عينيها.رأيت اعضاء جسدها تكبر ، تتلاحم خلاياها لتشكل ورم يتضخم بسرعة مخيفة حتى تداخلت الأعضاء وانفجرت فاندفعت الدماء وغطتها وحجبت وجهها عني كما حجبتها الدموع في عيني.

وقتها فقط أدركت من ذلك الألم في قلبي أني مازلت حي!

تتالت المشاهد في حركة بطيئة، بعضها معاد وبعضها لا أدري إن كان قد حدث بالفعل!

رأيت نسرين تلوح من فوق غيمة كثيفة، تنظر في عمق عيناي حتى شعرت بها تطوف بداخلي، شعرت بخطوات أقدامها في خفة فراشة تتحرك علي كتفي، شعرت بأصابع كفيها تلف علي قلبي كخيوط من نور.

سمعت صوتها يهمس في رأسي:
" أجل يا عزيزي، لم يكن هذا هو العالم الوحيد لكنه كان الأقبح بلا شك"

ثم تلاشت كشمس تذوب خلف السحاب، فلا ظل منها سوى بقايا وميض يتلاشى ببطء.

دق الباب فاضطربت رؤيتي، عاد الظلام يحيط بي، حركت قدمي في صعوبة بالغة، ازداد طرق الباب حدة حتى توقعت أن ينكسر قبل أن أصل إليه.

رأيته أمامي وقد كنت أظن أننا لن نلتقي أبدا ،مضت سنوات منذ تركت المنزل وتزوجت مريم، شعر كل منا بأن ذلك الفراق قد أزاح عبء ثقيل من فوق كاهله. ولم يحاول أحدنا حتى التظاهر بافتقاد الأخر. تزوره مريم مع مراد بين حين وأخر فيعرف كل منا عن الآخر بأنه مازال على قيد الحياة.

لو أن أعيننا ما التقت فور فتح الباب ،ربما ما كنت تعرفت عليه بسهولة.

تسلل الزمن إلي كل جزء في جسده، بداية من شعره الأبيض الذي تراجع حتى منتصف رأسه إلي قدميه التي أسندها على عكاز ليسهل حركته. لكن شئ واحد لم يتغير رغم انكماش الجلد حولهما ، بقيت عينيه جامدة كما هي تعكس روح لم تقوي الحياة عليها.

تحرك عكازه قبله وكأنه يتحسس الطريق، سعل بقوة كإطار سيارة يتمزق وهو يتمتم:
-ما تلك الرائحة الكريهة؟ هل هناك جثة تحللت هنا ؟
-ربما!
أجبته وأنا أفتح النافذة وأبتعد بسرعة قبل أن يصل ضوء الشمس إلي عيني.

وضع عكازه بين قدميه وأسند كفيه ثم قال بصوت يتخلله الأسي:
-سامحها الله على فعلتها، لقد نصحتها كثيرا أن تتوقف عن تدليلك، فقد كنت أري ما نحن فيه الأن قبل عشرون عام.
-لقد ماتت جميلة فدعها وشأنها.
رفع حاجبيه الكثيف وهو ينظر إلي في شك:
-من جميلة؟
سكت قليلا ثم أكمل بلهجة أكثر حدة:
-أسمع يا طارق! لقد أخبرتني مريم بتصرفاتك الغريبة، حديثك أثناء النوم ، صورتك التي اختفت من المرايا و همهمتك في الحمام لأوقات طويلة، والحق يقال أني لم أستطع أن أعرف إن كنت تدعي الجنون لتهرب من مسؤليتك كزوج وأب أم أن هناك خطبا ما قد أصاب عقلك،

لكني ما أهتم لأمره الأن هو مراد ، ذلك الولد المسكين لا ذنب له.

-نحن جميعا نحمل ذنوب لم نقترفها.

-دع فلسفتك لنفسك و هيا معي لتعتذر إلي زوجتك.

-وماذا لو رفضت؟

-ليس خيار أنه أمر هذا المنزل لزوجتك وأبنك.

لم أستطع أن أسكت ضحكة صارخة خرجت من جوفي في ألم شديد.

-لن أعود إلى تلك النسخة التي صنعتها ولا إلي النسخة التي صنعتها جميلة، هنالك دائما نسخة أخرى.

~~~~~~~~~~~~~~~~~
~~~~~~~~~~~~~~~~~